

== محمود محمد طه ==

الرسالة الثانية

من اللاء أولاً سلام

الطبعة الرابعة

محمود محمد طه

الرسالة الثانية

من الاسلام

الطبعة الثالثة

رجب ١٣٨٩

أكتوبر ١٩٦٩

الفهرست

الصفحة

٨	مقدمة الطبعة الثالثة
٩	السنة والشريعة
١٠	الاسلام والايمان
١٢	جليه الامر
١٥	الاهشاء
١٧	نوطه البحث

الباب الاول

٢٠	المدنية والحضارة
٢٠	هل المدنية هي الاخلاق
٢٢	المدنية الغربية
٢٣	فشل المدنية الغربية

الباب الثاني

٢٨	الفرد والجماعة في التفكير الفلسفي
٢٢	الفرد والكون في التفكير الفلسفي

الباب الثالث

٢٨	الفرد والجماعة في الاسلام
----	---------------------------

الصفحة

٤١	الحرية الفردية المطلقة
٤٦	الشريعة في خدمة الحرية الفردية المطلقة
٦٠	الفرد والكون في الإسلام
٦٤	الأرادة
٧١	الجبر والاختيار
٧٤	المران والجبر والاختيار
٧٨	المران والتفسير
٨٠	التفسير ما هو ؟
٩٢	المفسرة لادم
٩٧	كيف غفر لادم ؟
١٠٠	التفسير خير مطلق
١٠٤	القضاء والقدر
١١١	الخلاصة

الباب الرابع

١١٣	الإسلام
١٢٠	الثالوث الاسلامي

الباب الخامس

١٢٩	الرسالة الاولى
١٣٩	امة المؤمنين

أَنصَفْجَة

- ١٤٢ الجهاد ليس اصلا في الاسلام
 ١٤٩ الرق ليس اصلا في الاسلام
 ١٥١ انراسماليه ليست اصلا في الاسلام
 ١٥٢ عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس اصلا في الاسلام
 ١٥٣ تعدد الزوجات ليس اصلا في الاسلام
 ١٥٦ الطلاق ليس اصلا في الاسلام
 ١٥٨ الحجاب ليس اصلا في الاسلام
 ١٦١ المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس اصلا في الاسلام

الباب السادس

- ١٦٢ الرسالة الثانية
 ١٦٨ المسلمون
 ١٧٢ المجتمع الصالح
 ١٧٤ المساواة الاقتصادية : الاشتراكية
 ١٨٠ المساواة السياسية : الديمقراطية
 ١٨٩ المساواة الاجتماعية
 ١٩٦ خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب « الرسالة الثانية من الاسلام » وكانت الطبعة الاولى منه قد صدرت في يناير من عام ١٩٦٧ ، الموافق لشهر رمضان المكرم من عام ١٣٨٦ ٠٠ ثم صدرت الطبعة الثانية منه في ابريل من عام ١٩٦٨ ، الموافق المحرم من عام ١٣٨٨ ٠٠٠ وعند صدور هذه الطبعة صرفتنا صوارف العمل عن تصديرها بمقدمة خاصة بها ٠٠

هذا الكتاب - الرسالة الثانية من الاسلام - كتاب جديد من جميع الوجوه ٠٠ وهو ، الى جدته ، غريب كل الغرابة ، ولا غرو ، ذلك بأنه بشارة بعودة الاسلام من جديد ، وأى الناس ، من علماء الناس ، لا ينتظر الغرابة في عودة الاسلام من جديد ؟ ألم يقل المعصوم : « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ! قالوا من الغرباء يا رسول الله ؟ قال الذين يعيون ستنى بعد اقدارها » ٠٠ ٤٠

فالغربة في أصل عودة الاسلام ، ولكن هذا كثيرا ما يغيب عن الذين يتصدون للكتابة عن الاسلام ، ولقد تعرض لهذا الكتاب بعضهم فتورطوا في معارضة ما لم يحسنوا فهمه ، ولم يطبقوا الصبر عليه ، فجاءت معارضتهم مثلا من سوء الفهم ، وسوء التخريج ، وسوء القصد أيضا ، ولنا بحاجة لأن نرد على

هؤلاء ، فان سوء صنيعهم يكفيننا ايهم ، ولكننا نحب أن تنبه من عسى يحتاج الى تنبيهنا من القراء الى أن هذا الكتاب حق ، وأن الاطلاع عليه يقتضى الصبر ، والافادة ، ودقة النظر ، فاذا ظفر القارئ بأولئك فانه سيتفتح ذهنه على فهم جديد ، للقرآن وللإسلام ، وسيحمد عاقبة صبره ، وطول اناته ، ان شاء الله ..

السنة والشرعة

ولقد ذكر النبي في حديثه الغريب ، وقال انهم هم الذين يحيون سنته بعد اندثارها .. وهم ، بالدعوة الى هذا الاحياء ، يصبحون غرباء بين اهليهم ، وذلك لما يصحب هذه الدعوة من خروج عن مألوف ما عليه الناس .. هم غرباء الحق بين قوم يندو الحق بينهم غربا لطول ما ألفوا الباطل فظنوه حقا ، ولطول ما غفلوا عن الحق ..

ان ما ألف الناس ان سنة النبي هي قوله ، واقراره ، وعمله .. والحق ان هذا خطأ ، فان قول النبي ، واقراره ، ليس سنة ، وانما هما شريعة .. واما عمله في خاصة نفسه فهو سنة .. نعم هناك من قوله قول يلحق بالسنة ، وذلك هو القول الذي ينم عن حال قلبه من المعرفة بالله .. أما أقواله التي أراد بها الى تعليم الأمة في أمر دينها فهي شريعة ، والفرق بين الشريعة ، والسنة ، هو الفرق بين الرسالة ، والنبوة ، أو هو الفرق بين مستوى الأمة ، من أعلاها الى أدناها ، ومستوى النبي .. وذلك فرق شاسع وبعيد ..

السنة هي عمل النبي في خاصة نفسه ، والشرعة هي تنزل
النبي ، من مستوى عمله في خاصة نفسه إلى مستوى أمته ، ليعلمهم
فيما يطيقون ، وليكلفهم فيما يستطيعون .. فالسنة هي نبوته ،
والشرعة هي رسالته .. وانما في مضمار رسالته هذه قال : « نحن
معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم »

الاسلام والايمان

والناس ، اليوم ، لا يملكون القدرة على التمييز الدقيق بين
الاسلام والايمان ، فهم يمتدنون ان الايمان اكبر من الاسلام ،
وقد ورطهم في هذا الخطأ عجزهم عن الشعور بحالة الوقت ، ذلك
بأن الوقت الذي كان فيه هذا الفهم صحيحا قد انقضى ، وأقبل
وقت تطور فيه فهم الدين ، وانتقل من مستوى الايمان ،
إلى مستوى الاسلام .. الأمر فحواء كالاتى :

الاسلام فكر يرقى السالك فيه على درجات سلم سباعي ،
أولها الاسلام ، وثانيها الايمان ، وثالثها الاحسان ، ورابعها علم
اليقين ، وخامسها علم عين اليقين ، وسادسها علم حق اليقين ،
وسابعها الاسلام من جديد .. ولكنه في هذه الدرجة يختلف
عنه في الدرجة الأولية ، اختلاف مقدار ، فهو في الدرجة الأولية
اقياد الظاهر فقط ، وهو في الدرجة النهائية اقياد الظاهر
والباطن معا .. وهو في الدرجة الأولية قول باللسان ، وعمل
بالجوارح ، ولكنه في الدرجة النهائية اقياد ، واستسلام ، ورضا
بالله في السر والعانية .. وهو في الدرجة الأولية دون الايمان ،

ولكنه في الدرجة النهائية أكبر من الايمان .. وهذا ما لا يقوى العلماء الذين نعرفهم على تمييزه .. ولقد لبس على علماء الدين هذا الأمر حديث جبريل المعروف، الذي رواه عمر بن الخطاب ، قال : « بينا كنا جلوسا عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم اذ أقبل رجل شديد يياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يعرفه منا أحد ، ولا يرى عليه أثر السفر ، فجلس الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، واستدركتيه الى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذي ، ثم قال : يا محمد أخبرني عن الاسلام .. قال الاسلام ان تشهد الا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وأن تنصم الصلاة ، وأن تؤتي الزكاة ، وأن تصوم الشهر ، وأن تحج البيت ، اذا استطعت اليه سبيلا .. قال صدقت .. فمعجنا له ، يسأله ويصدقه !! ثم قال فأخبرني عن الايمان .. قال الايمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقدر ، خيره وشره ، واليوم الآخر .. قال صدقت .. ثم قال فأخبرني عن الاحسان .. فقال الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك .. قال صدقت .. ثم قال: أخبرني متى الساعة ؟ ؟ فقال ما المسئول عنها بأعلم من السائل !! قال فأخبرني عن علاماتها .. قال أن تلد الأمة وربتها وأن ترى الحفاة ، العراة ، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان .. قال صدقت .. ثم انصرف ، فلبثنا مليا .. ثم قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يا عمر ، أتدري من السائل ؟ قلت الله ،

ورسوله، أعلم .. قال هذا جبريل، أناكم يعدكم ديسكم !! » .. هذا الحديث ليس على علماء الدين الأمر فظنوا أن مراقى ديننا انما هى الاسلام ، والايمان ، والاحسان .. ولما كان واردا فى القرآن قول الله تعالى عن الاعراب « قال الاعراب آمننا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الايمان فى قلوبكم . » فقد أصبح واضحا أن الايمان أعلى درجة من الاسلام .. وما علموا أن الأمر يحتاج الى نظر ..

جلية الأمر

وجلية الأمر ان الاسلام ، كما هو وارد فى القرآن، قد جاء على مرحلتين : مرحلة العقيدة، ومرحلة الحقيقة أو سمها مرحلة العلم .. وكل مرحلة من هاتين المرحلتين تقع على ثلاث درجات ..

فأما مرحلة العقيدة فدرجاتها الثلاث هى : الاسلام ، والايمان ، والاحسان .. وأما مرحلة العلم فدرجاتها الثلاث هى : علم اليقين ، وعلم عين اليقين، وعلم حق اليقين .. ثم تجيء ، بعد ذلك ، الدرجة السابعة من درجات سلم الترقى السباعى ، وتلك هى درجة الاسلام ، وبها تتم الدائرة .. وتجيء النهاية تشبه البداية ، ولا تشبهها .. فهى فى البداية الاسلام ، وهى فى النهاية الاسلام .. ولكن شتان بين الاسلام الذى هو البداية ، وبين الاسلام الذى هو النهاية .. وقد سبقت الى ذلك الإشارة ..

ومرحلة العقيدة هي مرحلة الأمة المؤمنة .. وهي أمة الرسالة الأولى ..

ومرحلة العلم هي مرحلة الأمة المسلمة .. وهي أمة الرسالة الثانية .. وهذه الأمة لم تجيء بعد ، وإنما جاء طلابها ، فرادى ، على مدى تاريخ المجتمع البشرى الطويل . وأولئك هم الأنبياء ، وفي مقدمتهم سيدهم ، وخاتمهم ، النبي ، الأمين ، محمد بن عبد الله ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .. وهو قد بشر بهجىء هذه الأمة المسلمة ، كما جاء برسالتها ، مجملة في القرآن ، مفصلة في السنة ، وقد أسلفنا الإشارة الى معنى السنة ... وحين تجيء هذه الأمة المسلمة فإنها لا تبدأ الا بما بدأت به الأمة المؤمنة ، وهي مرحلة العقيدة ، ولكنها لا تقف في الدرجة الثالثة من درجات السلم التي وقف جبريل في أسئلته عندها ، وإنما تتعدها في التطور الى ختام الدرجات ، فتكون بذلك صاحبة عقيدة ، وصاحبة علم ، في آن معا ، فهي مؤمنة ، ومسلمة ، في حين أن الأمة الأولى مؤمنة ، وليست مسلمة ، بهذا المعنى النهائي للإسلام ..

ويجب أن يكون واضحا فان جبريل لما وقف ، في أسئلته ، عند نهاية درجات العقيدة لأنه لما جاء ليبين للأمة المؤمنة دينها ، ولم يجيء ليبين للأمة المسلمة ، التي لما تأت بعد ..

ان محمدا رسول الرسالة الأولى ، وهو رسول الرسالة

الثانية .. وهو قد فصل الرسالة الأولى تفصيلا ، وأجمل الرسالة الثانية أجمالا ، ولا يقتضى تفصيلها الا فهما جديدا للقرآن ، وهو ما يقوم عليه هذا الكتاب الذى بين يدى القراء ..

ان هذا الكتاب يهذى الطريق ، ولكنه لا يمكن من نفسه الا الذين يقبلون عليه بأذهان مفتوحة ..

عند الله نلتمس التسديد ، ونفجع المراد .. انه نعم المولى ..

الإهداء

الى الانسانية !

بشرى .. وتحية .

بشرى بان الله ادخس لها من كمال حياة
الفكر ، وحياة الشعور ، ما لا عين رأت ،
ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .
وتحية للرجل وهو يمتدح ، اليوم ، في
احسانها ، وقد اشتد بها الطلق ، وتنفس
صباح الميلاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

« اليوم أكملت لكم دينكم
وانعمت عليكم نعمتي ورضيت
لكم الإسلام ديناً »

نحمدك اللهم ، ونستهديك ،
ونستعينك ، ولا نحصى ثناء عليك ، أنت
كما أئبث على نفسك :

توطئة البحث

عندما استعلن النور الإلهي بمحمد الأمي من جبال مكة في
القرن السابع الميلادي ، أشرقت شمس مدينة جديدة ، بها
ارتفعت القيمة البشرية الى قمة لم يسبق لها ضريب في تاريخ
البشرية .

ولقد ظلمت تلك المدينة الانسانية الجديدة على أهواض
المدينة المادية الرومانية في الغرب ، وعلى أنقاض المدينة المادية
الفارسية في الشرق ، ولقد بلغت هذه المدينة الانسانية الجديدة
أوجها ، من الناحية النظرية على الأقل ، غداة أنزل الله تعالى

على نبيه الآية التي صدرنا بها هذا السفر ، وهى قوله تعالى
« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت
لكم الاسلام ديناً » . وذلك فى نهاية الثلث الأول من القرن
السابع ، ثم ان النبى لم يلبث أن التحق بربه ، فاثلب بذلك قمة
هرم هذه المدنية الانسانية الجديدة ، ومن أبلغ ما بلغنا فى
ذلك عبارة أحد الأصحاب حين قال ، « ما كدت نفض أيدينا
من تراب قبر رسول الله حتى أنكرنا قلوبنا » وظهر صدق هذه
العبارة عملياً فى أخريات خلافة عثمان ، من انتهى الى ما يعرف
فى التاريخ الاسلامى بالفتنة الكبرى .

وهذه المدنية الانسانية الجديدة ، التى جاء بها الله على
لسان محمد ، والتى عاش محمد فى أوجها ، والتى انصهرت قمة
موجتها بهذه السرعة المذهلة لدى موت محمد ، كما جاء فى عبارة
أحد أصحابه ، ما زالت قممها تطمئن ، وقاعدتها تتسع ، حتى
عادت مدنية مادية تشبه ، من بعض الوجوه ، المدنية الرومانية ،
والمدنية الفارسية ، اللتين أسلفنا القول بأن مدنية الاسلام قامت
على أقاضهما .

يقولون ان التاريخ يعيد نفسه ، وهذا حق ، ولكنه ليس
كل الحق ، ذلك بأن التاريخ لا يعيد نفسه بصورة واحدة ، وانما
يعيدها بصورة تشبه من بعض الوجوه ، وتختلف من بعضها ،
عما كان عليه الأمر فى سابقه ، فالمكان ليس كرويا ، ولا الزمان ،

تبعاً لذلك ، بكروى ، وانماهما لولبيان ، يسيران من قاعدة الى قمة ، تشبه فيهما نهاية الحلقة بدايتها ، ولا تشبهها .

وكما ان الزمان ، على كوكبنا هذا ، يسير على رجلين ، من ليل ونهار - من ظلام ونور - وكما أن الانسان يمشى على رجلين من شمال ويمين ، فكذلك الحياة تتطور على رجلين من مادة وروح . . وعندما يقدم المجتمع البشرى ، في ترقيه ، رجل المادة ، ويثبتها ، ويعتمد عليها ، يكون في حالة تهيم ليقدم رجل الروح ، وهو لابد مقدمها ، « كان على ربك حتما مقضيا » . ذلك بأن تقدم الحياة لا يقف اطلاقاً ، ولا يتأخر ، ولا يكرر نفسه ، وانما يسير قدماً في مدارج مراقبه ، حيث تطلب الحياة ان تكون كاملة في الصور ، كما هي كاملة في الجوهر . وهيئات !!

أقول ان سير الحياة ، في مراقبها ، كسير الموجة ، فهي لا تنفك بين سمح وقمة ، وهي عندما تكون في السفح انما تحتشد لتقفز الى القمة ، وانما يمثل السفح التقدم المادى للمجتمع البشرى ، وتمثل القمة تقدمه الروحى ، والذين لا يرون صورة سير المجسم مكتملة ، وانما يرونها بالتفريق ، ينعون عليه تقدمه المادى ، ولا يعتبرونه الا انحطاطاً ، ويحسبون رجسا من عمل الشيطان ، والله هو المسير الحياة اليه ، على هذين الرجلين ، من المادة والروح . وفى الحق ، انه لدى التوحيد ، انما المادة والروح شئ واحد ، ولا يقع بينهما اختلاف نوع ، وان وقع بينهما اختلاف المقدار .

الباب الاول

المدنية والحضارة

المدنية غير الحضارة ، وهما لا يختلفان اختلاف نوع ،
وانما يختلفان اختلاف مقدار .. فالمدنية هي قسمة الهرم الاجتماعى
والحضارة قاعدته .

ويمكن تصريف المدنية بأنها المقدرة على التمييز بين قيم
الأشياء ، والتزام هذه القيم فى السلوك اليومى ، فالرجل
المتمدن لا تلتبس عليه الوسائل مع الغاية ، ولا هو يضحي بالغاية
فى سبيل الوسيلة . فهو ذو قيم وذو خلق . وبعبارة موجزة ،
فالرجل المتمدن هو الذى حقق حياة الفكر وحياة الشعور .

هل المدنية هي الأخلاق؟؟

هى كذلك ، من غير أدنى ريب ! ! وما هى الأخلاق ؟ للأخلاق
تعريف كثيرة ، ولكن أعلاها ، وأشملها ، وأكملها هى أن تقول
أن الأخلاق هى حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة . ولقد
قال المعصوم « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » فكأنه قال
ما بعثت الا لأتمم مكارم الأخلاق ، ومن أجل ذلك قلنا أن محمدا عاش
فى أوج المدنية التى جاء بها ائمة عن طريقه ، ووصفه تعالى فيها بقوله
« وأنتك لعلى خلق عظيم »

وحيث سئلت عائشة عن أخلاق النبي قالت « كانت أخلاقه القرآن » ومعلوم أن القرآن أخلاق الله ، وأخلاق الله إنما هي في الاطلاق ، ومن ههنا جاء التعريف بأن الأخلاق هي حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة .

ومد كان محمد أقدر الناس على حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقه ، وذلك لشدة مراقبته لربه ، ولدقة محاسبته لنفسه ، على كل ما يأتي ، وما يدع ، في جانب الله ، وفي جانب الناس . أليس هو القائل « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » ؟

بل إن حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة إنما هو سنة النبي ، التي طالمنا تحدث عنها الناس ، من غير أن يدركوا حقيقتها . وهذه السنة هي التي أشار إليها في حديثه المشهور عن عوده الاسلام ، وذلك حيث يقول « بدأ الاسلام غربيا ، وسيمود غربيا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ! قالوا من الغرباء يا رسول الله ؟ قال الذين يحيون سنتي بعد اندثارها . »

فنته هي قدرته ، في متقلبه ومشواه ، وفي منشطه ومكرهه ، على حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة ، وتلك هي قمة الأخلاق ، وهي أيضا قمة المدنية .

وأما الحضارة فهي ارتفاع الحي بالوسائل التي تزيد من

حلاوة الحياة ، ومن طراوتها .. فكأن الحضارة هي التقدم
المادى ، فإذا كان الرجل يملك عربة فارغة ، ومنزلاً جميلاً ،
وأثاثاً أنيقاً ، فهو رجل متحضر ، فإذا كان قد حصل على هذه
الوسائل بتفريط فى حريته فهو ليس متمدناً ، وإن كان متحضراً ،
وإنه لم يذائق التمييز إن تمنع إلى أن الرجل قد يكون محضراً ،
وهو ليس متمدناً ، وهذا كثير ، وإنه قد يكون متمدناً ، وهو
ليس بمتحضر ، وهذا قليل ، والكمال فى أن يكون الرجل
متحضراً متمدناً فى آن . وهو ما تطلع إليه منذ اليوم .

المدنية الغربية

على هذا الفهم الدقيق ، فإن المدنية الغربية الحاضرة
ليست مدنية ، وإنما هي حضارة ، وهي ليست مدنية لأن موازين
القيم فيها قد اختلفت ، فتقدمت الوسيلة وتأخرت الغاية . ولقد
ورد فى « رسالة الصلاة » قولنا « إن المدنية الغربية الآلية الحاضرة
عملة ذات وجهين : وجه حسن مشرق الحسن ، ووجه دميم ..
فأما وجهها الحسن فهو اقتدارها فى ميدان الكشف العلمى ،
حيث أخذت تطوع القوى المادية لأخصاب الحياة البشرية ،
وتستخدم الآلة لعمول الإنسان : وأما وجهها الدميم ، فهو عجزها
عن السعى الرشيد إلى تحقيق السلام ، وقد جعلها هذا العجز
تعمل للحرب ، وتنفق على وسائل الدمار أضعاف ما تعمل للسلام ،
وأضعاف ما تنفق على مرافق التعمير .

فالوجه الدميم من المدنية الغربية الآلية الحاضرة هو فكرتها الاجتماعية ، وقصور هذه الفكرة عن التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة . حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وفي الحق ان المعجز عن التوفيق بين هاتين الحاجتين :

حاجة الفرد ، وحاجة الجماعة ظل آفة التفكير للاجتماعى فى جميع عصور الفكر البشرى .

وهذا التوفيق هو ، الى اليوم ، القمة التى بالقياس اليها يظهر المعجز القاضح ، فى فلسفة الفلاسفة ، وفكر المفكرين ، ويمكن القول بأن فضيلة الاسلام لا تظهر ، بصورة يقصر عنها تطاول كل متطاول ، الا حين ترتفع المقارنة بينه وبين المذاهب الأخرى الى هذه القمة الشامخة . « هذا ما قلناه فى « رسالة الصلاة » يومئذ ، ونقول اليوم أن من آيات اختلال موازين القيم فى هذه المدنية الغربية المادية ، ان الشيوعية الروسية أعطت اعتبارا للمجتمع ، وهو وسيلة ، فوق ما أعطت الفرد ، وهو غاية وان الاشتراكية فيها تقوم على حساب الحرية الجماعية ، وعلى حساب الحرية الفردية ، وليست الرأسمالية فى الغرب باحسن حالا ، فى هذا الباب ، من الشيوعية الروسية .

فشل المدنية الغربية

وهذه المدنية الغربية الآلية الحاضرة قد بلغت نهاية تطورها .

وقد فشلت فشلا نهائيا وظاهرا في أن تنظم حياة المجتمع البشرى المعاصر ، وآية هذا الفشل ان مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية لم يذق الاستقرار الذى ذاقه مجتمع ما بعد الحرب العالمية الأولى ، حين كانت هذه المدينة الغريبة لا تزال غنية بأفانين الحلول لمشاكل ذلك المجتمع ، فقد كان المنتصر فى الحرب العالمية الأولى منتصرا فى السلام أيضا ، وقد كان بذلك قادرا على تنظيم المجتمع العالمى يومئذ ، بصورة من الصور ، مهما يكن عيبها ، فقد كانت كافية لتحقيق نزع السلاح ، ولو الى مدى ، وإلى حين ، وكانت كافية لتحقيق لون من الاستقرار . وأما المنتصر فى الحرب العالمية الثانية ، وهوبريطانيا ، فقد أصبح منهزما فى السلام الذى أعقبها ، وان أردت الدقة قتل ، لم يكن فى الحرب العالمية الثانية منتصر ومنهزم ، وانما أصبح الجميع فى مركب واحد ، تلفهم الحيرة فى جناحها الأسود ، وما قد انقضى على نهاية الحرب نيف وعشرون عاما ، ولا تزال البشرية من خوف الحرب فى حرب ، فهى تتحدث عن السلام ، وتنفق على التسليح أضعاف ما تنفق على مرافق التعمير ، وما ذاك الا لأنها لا تعرف طريقا الى السلام الا طريقا يقوم على تخويف العدو من عواقب المجازفة بأشغال نار الحرب .

وسبب فشل المدينة الغريبة الآلية الحاضرة فى تنظيم المجتمع الحاضر هو أنها بلغت نهاية تطورها المادى الصرف ، فى هذه المرحلة الحاسمة ، من مراحل تحولات المجتمع البشرى

المعاصر ، وأصبحت تفتقر الى عصر جديد تشفع به عنصرها القديم ، وتلقحه به ، وتزيد بذلك من طاقاتها على التطور ، ومن مقدرتها على مواكبة ، وتوجيه حيوية المجتمع الحديث .

روسيا ، وهي تواجه المثل اليوم في تحقيق الاشتراكية ، بله الشيوعية ، وتنكص على أعقابها ، الى اجراءات هي أدخل في الرأسمالية منها في الاشتراكية ، تنوحى بها ايجاد حوافز للإنتاج جديدة ، تمنح أكبر الدليل على أن المدينة الغربية الحاضرة بلغت نهاية تطورها المادى الصرف ، ووقفت عند نهاية الطرق المسدود وسيصبح لزاما عليها أن ترجع الى مفترق الطرق ، حيث تبدأ بسلوك طريق آخر ، كانت شرارة الثورة قد أذهلتها عن سلوكه منذ نصف قرن مضى . ولن تجد الصين فرصة التجربة الطويلة التي وجدتها روسيا ، ذلك لأن الزمن قد أزف ، وأن المعارف الكيرة بين طاقة المجتمع البشرى الحديث ، وقصور المدينة الغربية أصبحت تنصح كل يوم ، وقد أخذت الصين تشعر بهذا التناقض الرهيب ، ولكنها لم تهتد الى متنفس له الا في هذه الحلة العصية ، التي أسستها سخرية ، بالثورة الثقافية يقوم بها ، في الشوارع والأماكن العامة ، المراهقون ضد أساتذة الجامعات والعلماء ، وهي تستهدف ، فيما تستهدف ، تأليه ما وصى تونغ ، وجعل كتاباته مصادر الثقافة الوحيدة ، ومناهل الحكمة التي ينتهى عندها رأى كل ذى رأى .

وليس من الضروري ان نذكر الغرب الرأسمالى هنا ، لأن

معارقات المدنية العربية تمثلها الشيوعية في روسيا وفي الصين أكثر مما يمثلها العرب ، ولأن العرب الرأسمالي ليس بصاحب رأى جديد هي المدنية العربية ، وإنما هو مقيم على القديم ، على تطوير يسير سببه تطرف الثورة الشيوعية ، مما اضطره الى ملاقاتها في نصف الطريق ، هي محاولة الإبقاء على نظامه القديم ، في وجه الثورة المجتاحة . فبسبب فشل المدنية الغربية الآلية الحاضرة اذن ، هو ان تقدمها المادى والالى ، لم يشفع بتقدم حلقى يصحح موازين القيم ، ويضع الآلة في مكانها من حيث انها حادم الانسان وليست سيده ، فالتقدم المادى عبر متناسق ، ولا متساق ، مع التقدم الروحى ، وفي تفكيرنا الاجماعى المعاصر ، كما سبق بذلك القول ، الرغبة يجد اعبارا بوق ما تلقى الحرية ، وهذه الظاهرة تنطبق على المذاهب الاشتراكية ، كما تنطبق على الرأسمالية ، وفي الحق أن الشيوعية لا تختلف عن الرأسمالية ، الا اختلاف مقدار فهمي كالرأسمالية ، مادية في الأصل ، ولكنها أكثأ منها ، من حيث المقدرة على تحقيق الوفرة المادية ، وعدالة توزيعها ، وما ينبغي أن نحدع عن هذه الحقيقة بملاحظة العداوة النائرة بينهما ، فانما هي بمثابة العداوة التي تكون بين الفرق المختلفة في الدين الواحد فهي عداوة لا تدل على اختلاف المنبت كما تدل على وحدة الأديم الذي تقوم عليه هذه الفرق المتناحرة .

واذا أردنا أن نضع سبب فشل المدنية الغربية الآلية
الحاضرة وضعا محددا ، وجب علينا أن نقرر أن مرد هذا الفشل
هو عجز هذه المدنية عن الإجابة على سؤالين ظلا بغير جواب
صحيح طوال الحقب السوافة من التاريخ البشرى وقد أصبحت
الإجابة عليهما ضربة لأزب •

والسؤالان هما : ما حقيقة العلاقة بين الفرد والجماعة ؟
وبين الفرد والكون ؟

الباب الثانى

الفرد والجماعة فى التفكير الفلسفى

أما الفلسفة الاجتماعية ، عبر العصور وإلى أن انتهت بالشيوعية المأصرة ، فإنها قد عشت فى إدراك العلاقة بين الفرد والجماعة ، فهى قد ظنت أن الفرد إذا وجد الفرصة لممارسة حريته فإن نشاطه سيكون ضد مصلحة الجماعة ، ولما كانت الجماعة أكثر من الفرد ، فإن مصلحتها أولى بالرعاية من مصلحته ، ومن ثم أهدرت حرية الفرد ، فى سبيل مصلحة الجماعة ، متى ظهر أنهما تتعارضان .

ومتى نظرت إلى تاريخ المجتمع البشرى ، منذ نشأته وإلى يوم الناس هذا ، ظهر لك جلياً أن حرية الفرد كثيراً ما تعارض مع مصلحة الجماعة ، بل ظهر لك أن الجماعة لم يقيم نظامها ولم تصن مصالحها إلا على حساب تقييد حرية الفرد ، ذلك بأن الفرد البشرى ارتفع من حيوانية متوحشة ، لا هم لها غير تحصيل شهوة البطن والفرج ، ولما كان المجتمع البشرى فى أولياته لم يكن لينشأ إلا إذا قيدت هاتان الشهوتان ، فقد قام العرف الذى ينظم العلاقات الجنسية ، فيحرم الأخت على الأخ ، ويحرم بنت على الأب ، ويحرم الأم على الابن ، ويحرم زوجة الابن على الأب ، ويحرم زوجة الأب على الابن ، قبل أن يقوم العرف الذى

يحرم الرنا عموماً ، وقد أعان هذا العرف ، أو سمه القانون الأول ، على تهديته الميرد الجنسية التي كانت تفترق الأسرة البشرية ، كلما بلغ الابناء فيها مبلغ الرجال ، فقد أصبح ، بعد هذا العرف ، من المنسكى ان يتعاشى ، فى منزل واحد ، أو فى مازل متجاورة ، الأب والابن البالغ والصهر والابن المترواح ، وكل منهم آمن على روجه من الآخرين . ولربما يكون العرف الذى ينظم احترام الملكية المردية قد نشأ مع هذا العرف من الوهلة الأولى ، فانه ، فى المجتمعات البدائية ، ليس هناك كبير فرق بين ملكية الزوجة ، وملكه الآله أو الكهف ، وإذا كان لابد للمجتمعات الصغيرة أن تعيش فى وئام ، وفى مكان واحد ، وفى أعداد تتزايد دائماً ، تصيد معاً ، ويحارب أعداءها معاً ، وتقابل صروف الأيام متحدة ، فانه لابد من الواضع على هذين العرفين ، اللذين يظلمان السلوك فى الجماعه ، ويصونان كيانهما . ولابد أن عقوبة القتل كانت تنفذ فى المرد لدى ثبوت تهمة الرنا ، فى هذه الدوائر ، عليه ، يتولى فى ذلك الرجال والنساء . ولقد كانت عقوبة القتل توقع على الفرد أيضاً لدى السرقة من عشيرته الأقربين ، ثم عمت فأصبحت تطبق لدى السرقة من حيث هى ، وذلك عندما اتسعت الجماعة ، ثم خففت ، فأصبحت تتأصل طرفاً من السارق بدلا من استئصال حياته كلها ، ذلك بأن الأفراد قد بلغوا من الرفعة والذكاء بحيث يرتدعون بعنف أخف من العنف الذى كان ضروريا لردع أسلافهم .

وليس معنى هذا الحديث ان المجتمعات كلها نشأت بصورة واحدة في كل مكان ، ولكنه ممالا شك فيه ان المجتمعات البشرية حيث نشأت فقد نشأت حول طائفة من العادات والأعراف ، التي تمثل نشأة القانون ، والتي يرجع اليها الفصل في نشأة المجتمع البشرى . ولما كان الفرد البشرى الأول غليظ الطبع ، قاسى القلب ، بليد الحس ، حيوانى التبعة فقد احتاج الى عطف عفيف لترويضه ، ولتقله من الاستيحاش الى الاستيناس ، وكذلك كان العرف الاجتماعى الأول ، شديداً عنيفاً ، يفرض الموت عقوبة على أيسر المطالبات ، بل انه يفرض على الأفراد الصالحين أن يضموا حياتهم دائماً في خدمة مجتمعهم ، فقد كانت الصحة البشرية معروفة تذبذب على مذابح معابد الجماعة ، استجلاباً لرضا الآلهة ، أو دفناً لغضبها حين يظن بها الغضب ، ولقد كانت هذه الشريعة العنيفة ، في دحض حرية الفرد ، في سبيل مصلحة الجماعة معروفة ومعمولا بها ، الى وقت قريب ، ففي زمن أبى الأنبياء ، ابراهيم الخليل ، وهو قد عاش قبل ميلاد المسيح بحوالى ألفى سنة ، كانت هذه الشريعة لا تزال مقبولة ديناً وعقلاً ، فانه هو نفسه قد أمر بذبح ابنه اسماعيل ، فأقبل على تنفيذ الأمر غير هباب ولا متردد ، فتأذن الله يومئذ بنسخها فنسخت ، وفدى البشر بحيوانية أغلظ من حيوانيته ، وكان هذا علماً بأبى ارتضاع البشر درجة فوق درجة الحيوان قد أشرف على غايته ، ولقد قص الله علينا من أمر ابراهيم واسماعيل فقال « وقال الى ذاهب الى ربى سيهدينى » رب هب

لى من الصالحين * فبشرناه بسلام حلیم * فلما بلغ معه
 السمع قال يا بى انى أرى فى المنام انى أذبحك ، فأنظر مادا
 ترى ، قال يا أبتي افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين
 * فلما أسلما وتله للجبين * وناديا يا بى ابراهيم * قد
 صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين * ان هذا لهو البلاء
 المبين * وفدياه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام
 على ابراهيم . »

« وتركنا عليه فى الآخرين » تعنى فيما تعنى ابطال شريعة العنف
 الفرد البشرى ، لأنها لبثت حقا سحيقة ، وقد تم انتفاعه بها ،
 فارتفع من وهدة الحيوانية وأصبح خليقا أن يفدى بما هو
 دونه من بهيمة الأنعام .

ولا عرة ببعض صور العنف التى لا يزال يتعرض لها
 الأفراد فى المجتمعات البشرية المعاصرة ، فأنها آيلة الى الزوال
 كلما أتاحت لها فرص الوعي والرشد . فان التضحية الصية
 بالفرد الشرى لم تنته بجرة قلم على عهد ابراهيم الخليل ، والتاريخ
 يخبرنا أن المسلمين ، لدى فتح مصر ، قد وجدوها تمارس فى
 صورة عروس الليل ، فانه قد قيل ان عمرو بن العاص ، فاتح
 مصر وأميرها يومئذ ، قد اتبعه ذات يوم على جلبة عظيمة ، فسأل
 عنها ، فأخبر أن القوم قد جرى عرفهم بأن يتخيروا بنتا ، من
 أجمل الفتيات ، ومن أعرق الأسر ، يزفونها كل عام الى
 النيل ، يلقونها فى أحضانته فداء لقومها من القحط ، لأنها تغرى

النيل بأن يفيض عليهم باليمن والبركات ، فطلب اليهم عمرو
ابن العاص أن يستأنوا بها ، حتى يستأمر عمر بن الخطاب في ذلك ،
فكتب الى عمر ، فرد عمر بجوابه المشهور الذي قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين ، الى نيل مصر •
السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته •
أما بعد ، فإن كنت تفيض من عندك فلا تفيض ، وإن كنت
أما تفيض من عند الله ففض •

وأمر عمرو بن العاص أن يلقيه في النيل ، ففعل ، وفاض
النيل ، وأبطلت من يومئذ تلك العادة ، وتم بالعلم فداء جديد
للفرد البشرى •

وهذا العنف العنيف بالفرد البشرى ، الذي استمر منذ فجر
المجتمع البشرى ، وهو قبل فجر التاريخ بآماد سحيقة ، وظلت
صوره الى وقت قريب ، كالذى سقنا عليه المثالين الماضيين ، ضلل
المفكرين الاجتماعيين ، فظنوا أن حرية الفرد ، قياسا الى ما
جرى به التاريخ ، تتعارض دائما مع مصلحة الجماعة ، وإن الرشد
اذن في أن يضحي بحرية الفرد في سبيل مصلحة الجماعة •
وتورطت في هذا البوهم الشيوعية ، وهي طليعة الفلسفة الاجتماعية
المعاصرة ، وصاحبة الدور التقدمي الذكي في المدنية الغربية الآلية
الحاضرة •

الفرد والكون في التفكير الفلسفي

وعجز الفلسفة الاجتماعية المعاصرة في ادراك العلاقة بين الانسان والكون ، أكبر من عجزها عن ادراك العلاقة بين الفرد والجماعة ، ولكن أثره أقل ظهورا ، ذلك بأن علاقة الفرد بالجماعة واجهت التطبيق العملي ، في السياسة والتشريع والتنفيذ ، بينما لا تزال العلاقة بين الفرد والكون في الحيز النظري ، وما ذاك الا لأننا لا نزال في قبضة غريزة القطيع ، لم يقو بنا الفكر حتى نبرز الى منازل الفرديات . ولكن ، مما لا ريب فيه ، ان عهد الجماعة أصبح يغلى مكانه لعهد الفرد الذي أخذت شمسهُ تؤذن بشروق ، وسيحل يومه حين يتم نظريا ، ثم عمليا ، فض التعارض المتوهم بين الفرد والجماعة ، وهو أمر مستحدث عنه بالتفصيل بعد قليل ، ان شاء الله .

والفهم الدقيق للعلاقة بين الانسان والكون ليس أمر فلسفة نظرية يمكن أن تلحق بالترف الذهني ، وانما هو أمر عملي ، عليه يتوقف تحقيق الفردية ، في مضمار المجهود الفردي ، وفي مضمار تنظيم الجماعة لتكون والدا شرعيا للأفراد الذين يرجى لهم أن يحققوا فردياتهم .

وضلال الفلسفة الاجتماعية عن فهم العلاقة بين الانسان والكون فهما صحيحا انما يلتبس سببه في استقراء التاريخ البشري منذ بداياته ، ذلك بأن الانسان الأول ، عندما وقف على رجليه لأول مرة ، واستقبل بعقله البيئة الطبيعية التي عاش فيها ، وجدها

تزخر بالقوى الهائلة التى، فيما يبدو له ، تتركب بطريقة تحلف
عن تركيبه ، وتتصرف بأسلوب لا يستقيم مع تفكيره ومع رغباته،
وهى بعد لا تبالي بحياته أو موته، بل ان كثيرا منها ليسعى فى اهلاكه
سعيًا حثيثًا ، والذين يشاركونه الحياة ، بين هذه القوى الصماء
الهائلة ، هم بين صيد وصياد - صيد يصيد ويصاد ، وصياد
يصيد ويصاد، فكان البيئة كلها، أنياب زرق ، ومخالب حمر ،
وأصبح عليه هو ، اذا كان لا بد له أن يحمظ مهجه ، أن يكيد
أصناف الكيد ، وأن يحال لعه ألوان الحيل .

ثم ان هذه القوى الصماء، منها الهائل الرهيب الذى يعجز
حيلته ، ويعبى عقله ، ومنها ما يعطب منه الضرر ، ومنها ما
يغلب منه النفع ، فهدته حيلته الى التزلف اليها جميعا ، بدوافع
الخوف ، أو بدوافع الحب ، فندلل ، وتحشع ، وقدم الهدايا .
وقرب القرايين ، ورسم مراسيم العبادات . ومن القوى التى
تموج بها البيئة الطبيعية التى عاش فيها ، قوى تنالها الحيلة ،
وتبغ منها المناجزة ، فاحتال أفاعيل الحيلة ، فبنى البيوت فوق
الأشجار ، وعلى قمم الجبال ، وعلى أعمدة اتخذها من سيقان
الشجر وغرزها فى أرض برك المياه ، وفى الأماكن المحصنة
الأخرى . ثم هو باتخاذ الآلة ، من فروع الأشجار ، ومن قطع
الأحجار ، قد مد فى قدرته على المناجزة .

والانسان ، بين العبادة والمناجزة ، تغلب عليه الوحشة ،

ويساوره القلق بأنه وحيد من نوعه ، يحتوشه الأعداء من جميع أقطاره ، يتحينون منه الفرصة ، ويتربصون به الدوائر ، ومن هنا قام في خلد الإنسان أن مكانه من الكون مكان اللدد والخصومة .

ولقد اتهمت الفلسفة بعض ابتائها الآن الى أن يقرروا أن التدين ، الذي دفع اليه الإنسان الأول ، بالموامل الطبيعية التي جرى ذكرها آتفا ، انما هو لازمة من لوازم الطقولة ، وأن الدين ، حيث وحد والى اليوم ، انما هو ظاهرة طفولة ، اذ لجأ الإنسان الأول الى الله تخيله ليمد به حاجة الطفل فيه الى أب يحميه . وأن الأصل في مواجهة البيئة هو المناجزة ، لا التمليق ، وما دفع الانسان الى التمليق الا العجز عن المناجزة ، والآن ، وبطويرة لسلحه الأول ، من فروع الأشجار وقطع الأحجار ، الى أن بلغ به القنلة الهيدروجينية ، فان مقدرته على المناجزة اكتطت ، أو كادت ، ويجب اذن ان يقلع عن التمليق ، أو قل عن التدين ، وعن الأديان ، وعن الله .

والى خروشيف ينسب قول ، زعموا انه قاله ، وهو ان قاقارين عندما دار في الفضاء الخارجى وكان ذلك لأول مرة في تاريخ تقدم العلم الحديث ، لم يجد ذلك الكائن الذى يدعونه الله ، فكان خروشيف لا يتصور الله الا من نوع المادة التي يزعم انه يعرفها ، وفي الحق ، ان فلسفتهم ، حين عجزت عن تصور شئ وراء المادة ، اتخذت

من عجزها فضيلة ، فأنكرت وجود كل شيء وراء المادة ، وذلك لكي يستقيم لها القول بأن الانسان ، أثناء مناجرته لبيته المادية ، يتطور في فهمه لها ، ويحسن من وسائله في ملاجرتها ، حتى يتم له قهرها وتسخيرها ، ويصبح بذلك سيد مصيره .

إن الضلال في فهم علاقة الانسان بالكون لم يبلغ ، في أي وقت من الأوقات ، هذا البعد الذي بلعه على عهد الشيوعية ، وباسم العلم والفلسفة ... والشيوعية هي طليعة لفلسفة الاجتماعية المعاصرة ، وهي صاحبة الدور التقدمي ، الذكي ، في المدنية الغربية الآلية الحاضرة .. على أيسر تقدير ، هذا ما يبدو للشعوب الآن .

أم تقولون إن الغرب المسيحي يخلف في مسألة الدين ، وفي أمر الله ، عن الشرق الشيوعي .

قد يكون هذا حقاً من الناحية التقليدية ، ولكنه ليس بحق من الناحية العملية ، وليس في فكرة الغرب عن الدين ، وعن الله ، ما يعصم الغرب من أن يصبح شيوعياً ، ولقد كانت روسيا ، قبل الثورة الشيوعية ، مسيحية ، وكانت أورثوذكسية في ذلك . وفي الحق ، إن الدين ، سواء كان مسيحياً أو إسلامياً ، إن لم يستوعب كل نشاط المجتمع ، ونشاط الأفراد ، ويتولى تنظيم كل طاقات الحياة الفردية والجماعية ، على رشد وعلى هدى ، فإنه ينصل من حياة الناس ، ويقل أثره ، ويغلى مكانه لأية فلسفة أخرى ،

مهما كان مبلغها من الصلال ، مادامت هذه الفلسفة قادرة على
تقديم الحلول العملية لمشاكل الناس اليومية ، أو حتى ما دامت
قادرة على تحليل لاس ، الى حين ، باسم خدمة مصالحهم
المعيشية . فان الناس ، ما داموا أصحاب معداب وأجساد ، يجب
الا تهمل دعوتهم الى القضيلة حاجة معداتهم وأجسادهم ، بل
ان المعرفة بطائع الأشياء تقضى بأن تكون دعوتهم الى القضيلة
عن طريق معداتهم وأجسادهم .

ومهما يكن من الأمر بين الشرق الشيوعي ، والغرب
المسيحي ، فان المدنية الغربية الآلية الحاضرة ليست مسيحية ،
وهي قد عجزت عن ادراك العلاقة بين الفرد والجماعة ، كما عجزت
عن ادراك العلاقة بين الفرد والكون ، وهي من جراء هذا
العجز قد منيت بالقصور العملي عن الجمع بين الاشتراكية
والديمقراطية وذلك أكبر مظاهر فشلها .

ولنا نحن الآن بصدد الزاوية عليها ، ولا بصدد التقليل من
شأنها ، وإنما نحن بصدد دراسة علمية لها ، تضعها في موضعها ،
وتعرف لها حقها ، وتدعو الى سد النقص فيها لتغدو مدنية بعد
أن أصبحت حضارة .

الباب الثالث

الفرد والجماعة في الاسلام

أول ما تجب الإشارة اليه هو أن الفرد في الاسلام هو الغاية وكل ما عداه وسيلة اليه ، بما في ذلك وسيلة القرآن ، والاسلام ، تستوى في ذلك المرأة مع الرجل مساواة تامة ، وهذا يعنى ان الفرد البشرى - امرأة كان أو رجلا ، عاقلا كان أو مختل العقل - يجب ألا يتخذ وسيلة الى غاية ورامه ، وانما هو الغاية التى تؤدى اليها جميع الوسائل •

وهذه الفردية هى جوهر الأمر كله ، اذ عليها مدار التكليف ، ومدار الشرف ، واد لا تنصب موازين الحساب ، يوم تنصب ، الا للأفراد - يتساوى في ذلك الرجال والنساء وهذه النقطة نجب لها أن تكون مركزة في الأذهان - فالله تعالى يقول « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ويقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ويقول « ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » ويقول « ان كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا » * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتية يوم القيامة فردا » ويقول « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » وهذه المساواة بين الرجل والمرأة ، هى أصل الاسلام وانما ميزت بينهما الشريعة لعوامل تلمس فى تطور المجتمع عبر التاريخ •

ومما لا ريب فيه ان الفرد الذى يقام له وزن فى الاسلام
انما هو الفرد العارف بالله ، وانما جعل الاسلام كل فرد عاية فى
ذاته ، وان كان أبله ، لانه جرثومة العارف بالله ، وستحصل منه
المعرفة ، عاجلا أو آجلا ، « كان على ربك حتما مقضيا » ولقد
زعمنا فى مستهل هذا السفر ان الاسلام قد استطاع ان يفض
التعارض البادى بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة ، وان ينسق
هاتين الحاجتين فى سمط واحد ، تكون فيه حاجة الفرد الى الحرية
الفردية المطلقة ، امتدادا لحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية
الشاملة . وبمباراة أخرى ، استطاع ان يجعل تنظيم الجماعة
وسيلة الى الحرية ، وهو بمداننا استطاع هذا التنسيق بفضل
التوحيد ، الذى جعل شريعته تقع على مستويين . . مستوى
الجماعة ، ومستوى الفرد : فاما تشريعه فى مستوى الجماعة
فيعرف بتشريع المعاملات ، وأما تشريعه فى مستوى الفرد فيعرف
بتشريع العبادات . والسمة الغالبة على تشريع المعاملات انه
تشريع ينسق العلاقة بين الفرد والفرد فى المجتمع ، والسمة الغالبة
على تشريع العبادات انه تشريع ينسق العلاقة بين الفرد والرب ،
وليس معنى هذا ان كلا من هذين التشريعين يقوم بمعزل عن
الآخر ، وانما معناه انهما شطرا شريعة واحدة ، لا تقوم الا بهما
معا . وبينهما اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع . فتشريع
المعاملات تشريع عبادات فى مستوى غليظ ، وتشريع العبادات تشريع
معاملات فى مستوى رفيع ، وذلك لأن سمة الفردية فى العبادات أظهر

منها في المعاملات .. والمقرر انه ليست للعبادة قيمة ان لم تنعكس في معاملتك الجماعة معاملة هي في حد ذاتها عبادة . ولقد جعل المعصوم الدين كله في هذا المجال فقال : « الدين المعاملة » فكان العبادة في الخلوة مدرسة تعد الفرد الاعداد النظرى ، ثم هو لا يجد فرصة التطبيق العملى الا في سلوكه في الجماعة ، وتمرسه بمعاملة أفرادها .

فالتوحيد يقرر ان الوجود كله مصدره واحد ، وطريقه واحد ، ومصيره واحد .. من الله صلب ، والى الله يمود ، وانما يعود فرادى « ولقد جئونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » . وليست العودة الى الله بقطع المسافات ، وانما هي بتقريب الصفات من الصفات . بتقريب صفات المحدود ، من صفات المطلق . وانما تكون عودة الفرد الى الله بوسائل العودة اليه ، ومنها وسيلة الاسلام ، ووسيلة القرآن ، ووسيلة الجماعة .. والجماعة لها حرية ، وهي بمثابة قاعدة الهرم حين تكون حرية الفرد هي قمته . أو قل أن حرية الجماعة هي الشجرة وحرية الفرد هي الثمرة ، ومن ثم ، ومن هذه النظرة الشاملة ، لا يجد الاسلام تعارضا ، ولا تناقضا ، بين الفرد والجماعة .

وحين وصل الاسلام ، بفضل التوحيد ، الى هذا التحقيق الدقيق ، بين الفرد والجماعة ، شرع كل تشريعاته بصورة تحقق في سياق واحد ، حاجة الفرد وحاجة الجماعة .. فلم يضح

بالفرد في سبيل الجماعة ، فيهزم الغاية بالوسيلة ، ولسم يضح
بالجماعة ، في سبيل الفرد ، فيفرض أهم وسائل تحقيق الفردية ،
وانما جاء تشريع ، في جميع صوره ، نسقا عاليا من المقدرة
على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة
الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة .

الحرية الفردية المطلقة

كثير من الفلاسفة يرى أن الحديث عن الحرية الفردية المطلقة
نافلة من القول ، والافرية الفرد يجب أن تكون مقيدة ، ان لم
نرد لها أن تصبح فوضى .

وأما الاسلام فهو يرى أن الأصل في الحرية الاطلاق ، وانما
حين نتحدث عن الحرية ، من حيث هي ، وفي أي مستوى كانت ،
انما نتحدث عن الاطلاق ، من حيث لا ندري ، ذلك بأن الحرية
المقيدة انما هي نقحة من نقحات الاطلاق تضوعت على أهل الأرض
بقدر طاقتهم على احتمالها ، فكان القيد ليس أصلا ، وانما الأصل
الاطلاق ، وما القيد الا لازمة مرحلية تصاحب تطور الفرد من
المحدود الى المطلق .

فالحرية في الاسلام مطلقة ،، وهي حق لكل فرد بشري ، من
حيث انه بشري ، بصرف النظر عن ملته أو عنصره ،
وهي حق يقابله واجب ، فلا يؤخذ الا به ، وهذا الواجب
هو حسن التصرف في الحرية . فلا تصبح الحرية محدودة الا حين

يصبح الحر عاجزاً عن التزام واجبها، وحينئذ تصادر في الحدود التي عجز عنها ، وتصدر بقوانين دستورية.. والقوانين الدستورية في الاسلام هي القوانين التي تملك القدرة على التوفيق بين حاجه الفرد الى الحرية الفردية المطلقة، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة، فهي لا تضحي بالفرد في سبيل الجماعة ، ولا بالجماعة في سبيل الفرد ، وانما هي قسط موزون بين ذلك .. تحقق حين تطبق ، بكل جزئية من جزئياتها ، مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة في آن معا ، وفي سياق واحد . وانما كان الاطلاق في الاسلام أصلاً لأنه لا يرى لترقي الفرد حداً يقف عنده ، فهو عنده سائر من المحدود الى المطلق ، أو قل مسير من النقص الى الكمال - والكمال المطلق . فهاية العبد في الاسلام كمال الرب ، وكمال الرب في الاطلاق، والله تبارك وتعالى يقول « وان ليس للانسان الا ما سعى » وان سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الاوفى * وأن الى ربك المنتهى » يعنى منتهى السير .. وليس السير الى الله بقطع المسافات ، كما قلنا آنفاً ، وانما هو تتخطى العبد بأخلاق الرب ، والله تعالى يقول « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه » اردت أو لم ترد لقاءه، وأين يكون لقاءه ؟ أفى أرضه أم سمائه ؟ لقد قال جل من قائل « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، وانما وسعنى قلب عبدى المؤمن » فانت اذن انما تلتقاه فيك . وبه لا بك .

وفي ذلك قال المعصوم « تخلقوا يا خلاق الله ، ان ربي
على سراط مستقيم » ..

والله تعالى يقول « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ،
وبما كنتم تدرسون » ..

والذي يجعلنا عاجزين عن الوفاء بواجب الحرية الفردية
المطلقة انما هو الجهل ، ونحن ، لفرط جهلنا ، نحب جهلنا ، ونكره
المعرفة ، الا اذا جاءت عن طريق يناسب هواننا . « كتب عليكم
القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ،
وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم واتم لا تعلمون »
.. « وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم » تشير الى انايتنا .. فنحن
نحب انايتنا ، ونحب كل ما يصدر عنها من حماقات . وكل
فرد بشري هو ، بالضرورة التكوينية ، اناي .. وكما له انما
يكن في هذه النشأة الانانية ..

وانانية كل اناني على مستويين .. مستوى الانانية
الضيقة ، المتسفة ، الجاهلة ، ومستوى الانانية الواسعة ،
المتسامية ، العاقلة .

فالاناني الجاهل قد يرى مصلحة في امور تخالف مصالح
الجماعة ، واذا اقتضى الامر فهو قد يضحي بمصلحة الجماعة ليصل
الى ما يظنه مصلحته هو .. والاناني العاقل لا يرى مصلحة
الا في امور تستقيم مع مصالح الآخرين ، فهو يقول مع ابي العلاء
المعري : -

ولو انى حيت الحلد فردا * لما أحييت بالخلد اقمراده
فلا هطلت على ولا بأرضى * سحائب ليس تنتظم البلاد.

وملاك هذا الأمر التعليم الرشيد فى عبارة المعصوم حين
قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ومنذ
هذه اللحظة وضع الاسلام نفسه ضد الأنانية الجاهلة ، ومع الأنانية
العاقلّة « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »
هواه يعنى أمانته الجاهلة .. « ان أعدى أعدائك نفسك التى
بين جنبيك » . « نفسك التى بين جنبيك » تعنى نفسك السفلى ،
أو نفسك الدنيا ، فى مقابلة نفسك العليا ، أو نفسك الأخرى ، التى
يرجع اليها كاف الخطاب فى « ان أعدى أعدائك » فكأنه قال أن
أعدى أعداء نفسك الأخرى نفسك الدنيا .. ولأمر ما كثر
التعبير فى القرآن بكلمتى الدنيا والأخرى .

وكل ذلك يعنى الأنانية الجاهلة فى مقابلة الأنانية العاقلّة ..
.. وقول الله تعالى « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »
يعنى للنفس العليا ، وكذلك قوله « من اهتدى فانما يهتدى
لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها » .

وما دنا فى منطقة الأنانية الجاهلة ، فان حريتنا لا بد تقيد ،
لمصلحة مجتمعا ، ولمصلحتنا نحن أيضا ، ويجب أن يكون القيد
وفق قانون دستورى .. ومن هذا يتضح أن الحرية فى الاسلام
على مستويين : مستوى الحرية المقيدة بقوانين دستورية ، وقد

تحدثنا عن القوانين الدستورية ، ومنوى الحرية المطلقة . والحر في المستوى الأول ، هو الذى يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، على شرط ألا تتعدى ممارسته لحيته في القول ، أو العمل ، على حريات الآخرين ، فإن تعدى تعرضت حريته للمصادرة وفق قوانين دستورية ، جزاء وفاقا .

والحر في المستوى الثانى هو الذى يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لا تكون نتيجة ممارسته لكل أولئك ألا حيرا ، وبركة ، وبرابالناس ، وأدى مراتب الحرية لأولى العدل ، وأدى مراتب الحرية الثانية العفو ، وصاحب هذه لا يظوى ضييره المحجب على ضغن على أحد ، ذلك لأنه يعلم أن الجريمة إنما تبدأ في الضمير ، ثم تبرز الى حيز القول ، ثم الى حيز العمل . والله تعالى إنما يعنى هؤلاء ، ولا يعنى أولئك ، حين قال : « وفروا ظاهر الاثم وباطنه ، ان الذين يكسبون الاثم سيحزون بما كانوا يقترفون » وهو أيضا يعينهم حين قال : « قل إنما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بئر » وهو أيضا يعينهم حين قال : « وان تبدوا ما فى أنفسكم ، أو تخفوه ، يحاسبكم به الله » ..

وأما أصحاب مرتبة الحرية المقيدة فإن حديث المعصوم يعينهم حين قال « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسهم ، حتى

يقولوا أو يعملوا»

والحرثان متداخلتان ، فالأولى منهما مرحلة اعداد للثانية ، اذ لا يبلغ الفرد منارلها الا بالتمرس بالمجهود الفردي في تربية النفس ، بمراقبتها ، ومحاسبتها ، وترويضها لتصبح موكلة بالتجويد ، كلفه بالاحسان . والمراقبة تعنى الحضور مع الله دائما حتى لا تتصرف الجوارح فيما لا يرضيه . من فكر ، أو قول ، أو فعل ، والمحاسبة تعنى استدراك ما افلت من ضبط المراقبة ، ولما كانت الحرية الفردية المطلقة لا تبال الا بشئها ، وثمنها ، كما قررنا آنفا ، هو حسن التصرف في حرية الصمير المعب ، وحرية القول ، وحرية العمل ، فقد طوع الاسلام عباداته ، وتشاريحه ، لتبلغ بالفرد هذا المبلغ .

الشريعة في خدمة الحرية الفردية المطلقه

شريعة العبادات كلها شريعه فردية لأن مدارها على الصمير المعب ، ولا يطمئن في هذا التقرير ان بعض العبادات تؤدي في جماعه . وفي الحق ، ان كل أعمال الاسلام في العبادات ، والمعاملات ، تركز على الصمير تركيزا أساسيا ، ومن ههنا جاء قول المعصوم : « نية المرء خير من عمله » . فالية تجري من العمل مجرى الروح في الجسد ، فاذا خرجت الروح من الجسد فسد ، وتحلل ، وأصبح هباء مشورا ، والى ذلك الاشارة الكريمة بقوله تعالى « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه

هباء منشورا « ذلك لأنه عمل لا روح فيه ، أو قل لا نية صالحة
لوجه الله وراعه .

والخطيئة انما تبدأ في الخاطر ، والباطن هو حديث الضير،
فاذا كان الضير المحجب ينطوي على اثم فان خواطره تكون
شريرة ، ثم لا تلبث هذه الخواطر ان تلح على صاحبها حتى ينطلق
بها لسانه ، فيكون كلامه شريرا ، ثم لا يلبث هذا الكلام الشرير
ان يلح على صاحبه حتى يبرز الى حيز العمل ، فيكون عمله
شريرا أيضا ، فاذا كان الفرد يكرر بالشر في ضميره الخفي ،
ويتحدث بالشر ، وتحرك أعضاؤه بعمل الشر ، فقد وجب ان تسحب
حريته ، وان تصدر ، بيد ان هذه المصادرة يجب أن تكون لمصلحته
هو أولا ، ثم لمصلحة الجماعة في المكان الثاني ، وهي انما تكون
لمصلحته اذا كان انما يفيد منها تربية تجعله أهلا لاستوداد حريته
من جديد ، مع المقدرة على حسن التصرف فيها .

ومما لا شك فيه ان التشريع ، سواء كان تشريع عادة ، او
تشريع عبادة ، انما هو منهاج تربوي يرتفع ، بالمجتمعات
وبالأفراد ، من ، الغلظة ، والجفوة الى اللطف والانسانية ، وكلما
كان الناس غلاظ الأكباد ، بليدي الحس ، كلما شدد عليهم
في التشريع ، وكبلوا بالقيود والأقال . فلو أن الناس رعوا
ما عليهم ، حق رعايته ، لما اعتروا في أمر من أمور معاشهم ، ولا
أمور معادهم ، والله تبارك وتعالى يقول « ما يفعل الله بعذابكم ان

شكرتم وآمنتهم ، وكان الله شاكرا عليهما ؟» لكن حاجة الناس الى الترية، والتأنيس، والترويض، هي التي حرمت المحرمات، وهي التي عزمت العزائم ، وجاءت المحرمات والعزائم وفق الحاجة اليها . وقد تحدثنا عن التشديد على الفرد عند نشأة المجتمع البشري في سحيق الآماد بما يكفي ، فاذا جئنا الى العصور الحديثه ، عصور الديانات الكتابية التي نعرفها ، نجد أن القاعدة تطرد ولا تخلف ، فهذا القرآن يحدثنا عن اليهود فيقول « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبمددهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » ويقول أيضا عنهم ، « واذا قال موسى لقومه يا قومى انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، دلكم خير لكم عند بارئكم ، قتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم » .

فلعلظة أكبادهم ، وبلادة حسهم ، شدد عليهم ، فحرمت عليهم الطيبات ، وفرض عليهم ، في التوبة ، ان يقتلوا أنفسهم قتلا حسيا ، وهو بسبيل مما تحدثنا عنه في أمر التضحية بالفرد البشري على مذابح العبادة في أول النشأة .

ولما تقدم الفرد البشري هو ما ، وأصبح لا يحتاج كل ذلك التشديد ليتربى ، خفف عنه ، فجاء التشريع في حق الأمة المحمدية يقول « قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه،

« إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير ، فإنه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فإن ربك غفور رحيم » وقال في حقهم أيضا ، « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة ، عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم أن الله كان بكم رحيمًا » .

فضاقت دائرة المحرمات في التشريع الأخير ، واختصرت الى أربعة ، كلها خبيث ، ثم تجاوزت حتى عن هذه الأربعة للمضطر ، اذا لم يكن باغيا ، ولا عاديا على أحد .

ونهى عن قتل النفس ، حين أصبحت تستجيب بأقل من هذا العنف فقال « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيمًا » وهو انما كان ، في شريعته ، بنارحيمًا لأننا أصبحنا رحماء « كما تدين تدان » .

وتواصل القاعدة أطرافها في المزيد من التخفيف على الناس كلما أصبحوا من رهاقه الحس بحيث لا يحتاجون الشدة ليتعلموا . . . ويبلغ من أمر هذا التخفيف ان يتقل التحريم من الأعيان الحسية الى صور السلوك المعنوية ، فاسمع القرآن الكريم يحدثنا فيقول : « يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد ، واكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » * قل من حرم زينة الله التي أخرج لمباهه والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا ، في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربي الفواحش ، ما ظهر منها

وما بطن ، والأثم ، والبغى بغير الحق ، وإن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ويقول ، « وما لكم إلا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، إلا ما اضطررتم اليه ، وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين » ودرؤا طاهر الأثم وباطنه ، إن الدين يكسبون الأثم سيجزون بما كانوا يقتربون » .

فاذا المحرم حقا ، وفي آخر الأمر ، هو عيب السلوك ، ونقص الأخلاق ، وإنما حرم المحسوس من الأعيان المحرمة كبوسيلة لشقاء النفوس من عيوب السلوك ، ومن نقص الأخلاق ، وذلك على القاعدة الحكيمة التي تطلب منها هذه الآية الكريمة ، « سنريهم آياتنا ، في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » وحين ينسحب التحريم من الصور الحسية الغليظة إلى الصور المعنوية الدقيقة في عيوب السيرة بين الناس ، يواصل هذا الانسحاب حتى يصل خفايا السرية ، وما يحويك فيها من خواطر الأثم ، وحين قال « وذرؤا ظاهر الأثم وباطنه » إنما جاء الأمر بترك ظاهر الأثم في مكان الوسيلة ، وجاء الأمر بترك باطن الأثم في مكان الغاية ، فكأنه قال . أتركؤا طاهر الأثم لتمكؤا من ترك باطنه ، لأنه هو مصدر كل الشرور . ويصل القرآن بمطاردة الأثم إلى أعوار السرية

حين يقول « وان تبدوا ما في أنفسكم ، أو تخفوه ، يحاسبكم به الله » وحين يقول « وعت الوجوه للمحي القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما » والظلم هنا الشرك الخفى ، واليه يرجع كل الشر ، في جميع صوره ، وانما يكون الشرك الخفى في سر السرية ، وأخفى منه ما يكون في سر السر ، كما يقول أصحابنا الصوفية والقرآن في ذلك يقول « وان تجهر بالقول فانه يعلم السر ، وأخفى » أخفى من السر ، وهو سر السر . فالسبب القرآن في شفاء النفوس من الخطيئة أسلوب عكسي ، يبدأ من الخارج ، ويسير الى الداخل . « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟ » قوله « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » يعنى ، في جملة ما يعنى ، أن السالك في طريق الله ، يراقب نفسه ، في أول أمره ، ويحاسبها ، لتترك عيوب العمل ، في حين انها متورطة ، في هذه الاثناة ، في عيوب القول ، ولكنه يسمح بذلك كنوع من التدرج للنفس ، ثم هو ، ان استقام له أمر نفسه في ترك عيوب العمل ، وكان ذلك منها في سلاسة ينة واقتياد ، زحف بها الى تكليفها ترك عيوب القول ، في حين انها متورطة ، في هذه الاثناة ، في عيوب الخواطر ، فهي مشوشة الخواطر ، كثيرة الثثرة الباطنية ، ولكنه يسمح لها بذلك سياسة لها وتدرجها ، لذكلفها أمرا شاقا في ترك ثثرة اللسان ، ثم هو ، ان استقام له أمره على ما يحب في ضبط لسانه ، بعد ضبط جوارحه ، يكون كل أولئك قد

ترك أثر احميدا في تهذيب الخواطر فيصبح عليه ان يزحف نحوها في ثبات وثقة ، يذهبها بعد تشويش ، ويسكنها بعد جيشان ، فان هو استقام له أمره على خير ما يحب ، وسلم صدره من الوسائس وتفتت السريرة ، فقد بدأ ، بصورة جليلة ، الأسلوب الطردى ، بعد أن وصل الأسلوب العكسي الى هذه المرحلة المتقدمة ، ويجب دور قوله تعالى من الآية السالفة الذكر : « أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟ » ويكون أغلب نظر الانسان بعد ذلك الى داخله بعد أن كان مشغولا ومهووسا بالخارج . وعند ذلك توشك المطابقة ان تتم بين السيرة والسريرة ، فان لقاء السريرة ينمكس في استقامة السيرة ، ويبلغ صاحب هذه السيرة عتبة الحرية الفردية المطلقة . وكلما تنقت السريرة ، كلما استقامت السيرة ، فضاقت لذلك دائرة المحرمات ، وانداحت دائرة المباحات ، على قاعدة الآية الكريمة ، « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرا عليما ؟ » فاذا استمر السير بالسار الى نهايته المرجوة ، وهي تمام لقاء السريرة ، وكمال استقامة السيرة ، عادت جميع الأعيان المحسوسة الى أصلها من الحل ، وانطبقت الآية الكريمة ، « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا ، وآمنوا ، و عملوا الصالحات ، ثم اتقوا ، وآمنوا ، ثم اتقوا ، وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » .

وهذه مرتبه متقدمة من مراتب الحرية الفردية المطلقة ،
التي قد طلوع كل تشريع الاسلام ليبلغها الأفراد ، ومن أكبر آيات
هذا التطويح ان التشريع كله ، وفي كل صورته ، مبني على
المعوضه ، أو قل القصاص « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب ،
لعنكم تمون » والقرآن أيضا يقول ، « ليس بأمانيكم ، ولا
أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوء يجزيه ، ولا يجد له من
دون الله وليا ، ولا نصيرا » ويقول « ليحزي الله الصادقين بصدقهم ،
ويلعذب المنافقين ، ان شاء ، أو يوب عليهم ، ان الله كان عفورا
رحيما » ويقول « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن
يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهاتان لايتان هما قوام الأمر
كله ، في معنى الشريعة ، وفي مبنى الحقيقة * * . يعنى في عقوبة الدنيا
أو ثوابها ، وفي عقوبة الآخرة أو ثوابها .

والقرآن يقول « يسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد
للكافرين عذابا أليما » فمثل عنها شبح الطائفة الصوفية ،
أمر القاسم الجيد فقال « يسأل الصادقين ، عند أنفسهم ، عن
صدقهم ، عند الله * » والصدق عند الله مطلق ، والصدق عند
الخلق نسبي ، فيحزي كل صاحب صدق بما يبلغ صدقه بالقياس الى
الصدق المطلق * . كما قال « ليحزي الصادقين بصدقهم » وهذا الجزاء
قصاص في الشريعة ، وقصاص في الحقيقة أيضا ، كما وردت الى
ذلك الإشارة « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » حياة هنا

تعنى زيادة معرفة • فحين تجارون بالخير على ما عملتم من خير ، على قاعدة الحسنة بعشر أمثالها ، أو تضاعف ، وحين تعاقبون على السيئة بمثلها ، أو يعفى عنها ، تريدون حياة على حياتكم السابقة ، بارتضاع مداركم ، وصعاء عقولكم ، وبسلامة قلوبكم •

وهذه الريادة في المدارك ، لدى القصاص في الشريعة ، لا تحتاج الى عميق فكر ، فهي ظاهرة ، وذلك ان الفرد لا يتعدى على حريات الآخرين ، أثناء ممارسته لحريته ، الا لجهل ، وغباء ، وقصور تخيل • • فمن قلع عين أحد ، أثناء ثورة غضب ، مثلاً ، لا يعمل ذلك وهو متحيل تماماً لمبلغ الألم ، وفداحة الضرر ، الذي يلحقه بصحته • فاذا ما اقتص منه ، فوضع في موضع الصحة ، وقلعت عينه معاوضة منه لفعله ذلك ، فقد تحقق غرضان في آن معا ، أولهما حفظ حق الجماعة ، برده المعتدى في نفسه ، وبجعله نكالا لغيره ، وثانيهما احرار حاجة الفرد الى سعة التحيل ، حيث أعطى الفرصة ليعيش التجربة الاليمة التي فرضها على غيره تقصر في تخيله شدة الألم ، وفداحة الحارة ، اللذين تسبب فيهما ، وانه لما لا ريب فيه ان مثل هذه التجربة الاليمة تجعل من يتعرض لها أكثر انسانية ، في مقبل أيامه ، منه في سابقتها ، فهو لا يمكن ان يسقط من اعتباره نتائج تصرفه على الآخرين • وهو : على أيسر تقدير ، سيكف إذا ما

عن الآخرين ، وقد يحتمل أذاهم أيضا ، وسيكون ، على التحقيق ، كثير الاعتبار لهم ، حين يتصرف ، وقد يقوده هذا الصنيع ، معانا بالعبادة ، الى الكلف بتوصيل الخير اليهم ، وهو خليق ان يجد في ذلك رضا نفسه ، وطمأنينة قلبه . فان هو بلغ ذلك فقد وقف على أعتاب الحرية الفردية المطلقة ، بفضل ما أصاب من الوعي وسعة التحيل للذين أفاده اياهما القصاص . وان هو لم يبلغ هذا المبلغ فحسبه ان يكون واعيا بالحدود حريته وحدود حريات الآخرين ، وفي ذلك خير كثير . والمفاوضة في حد الزنا تقوم على الرجم ، أو على الجلد ، حسب مقتضى الحال ، وذلك ان الزاني حين ذهب يبحث عن اللذة ، حيث كانت ، ومن غير اعتبار لشريعة ، أذيق الألم ليرده لصوابه . فان موقع الألم من وادى النفس يقوم على العدو القصى ، حين تقوم اللذة على العدو الدنيا ، وفي شد النفس الى الألم ، حين تنهافت على اللذة المحرمة ، اقامة للوزن بالقسط مما يعينها على الاعتدال ، ويجعلها أبعد من الطيش والنزق .

وحد الضرر يقوم على نفس الأصل ، وذلك ان صاحب الضرر حين يسعى في الناء عقله ، انما يريد أن يهرب من واقعه ليعيش في دنيا من صنع أوهامه ، واخيلته المريضة ، فأريد بالألم الجلد أن يرده الى واقعه المرير ليعمل عقله في تغييره ، فان الواقع لا يتغير بالهروب منه ، وانما يتغير بمواجهته ، وأعمال الفكر في

تغيره ، والله تعالى يقول « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما
بأنفسهم » .

ثم ان العقل ، وبه وحده استحق الانسان الكرامة على
الحيوان ، هو الابن الشرعى للقاح اللذة بالالهم ، منذ سحق
الآماد ، وعبر رحلة الحياة الشاقمة ، فادحاف عليه صاحبه ، في لحظة
من لحظات الصعف ، فأن في لذع الالهم لما يمينه على استعادة مكانه
من قيادة السفينة في خضم الحياة الصخاب ، حتى يبلغ بها سر
السلامة .

وقانون المعاوضة - القصاص - قانون ينبع من أصل
في الحياة أصيل . فهو ليس قانون دين بالمعنى المألوف في
الأديان ، وبحس حين تقرر ان تشاريع الاسلام مبنية على
القصاص ، انما نعى الاسلام في حقيقته ، لا في عقيدته ، والاسلام
في حقيقته ليس ديناً بما ألف عن الأديان ، وانما هو علم ، وما
مرحلة العقيدة فيه الا مرحلة انتقال الى المرحلة العلمية منه . .
مرحلة الشرعة فيه مرحلة انتقال الى مرتبة الحقيقة حيث يرتفع
الأفراد ، من الشرعة الجماعية ، الى الشرائع الفردية ، التي هي
طرف من حقيقة كل صاحب حقيقة .

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ »
* انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج ، نبليه ، فجعلناه سميعا

بصيرا » . « هل » تعنى هنا فد و « الانسان » تعنى جسس
الانسان .

« لم يكن شيئا مذكورا » تعنى أنه كان يقلب فى المستويات
الدينا من الحياة ، لم يظهر فيه العقل ، الذى عليه ابى
سكليف ، وبه رفع الذكر . و « نطفه امشاج » تعنى الماء
لصافى المحبوس بالطين ، ومنه شأت الحياة فى طلماب الدهر .
و « قوله » بـ « بـليه » فهو روح الايه ، لاديه يثير الى الصراع فى
ايه الطيمه . بن الحى والقوى الصاء . وبينه وبين اخوانه فى
احياء ، وهو ماسف الاشاره الى جاب منه ، حين تحدثنا عن
شأه المجتمع البشرى ، وهذا الصراع ، قبل ، وبعد شأه
المجتمع البشرى ، كان ولا يزال ، قانونه المعاوضة « القصاص » .
قوله « فجعلناه سمعا بصيرا » اشارة الى العقل ، والى
كون العقل وليد الصراع الذى يهدى قانون المعاوضة « فمن
يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ووردت
بعد الايتين السالفتين من سورة الدهر الآية « انا هديناه السبيل ،
اما شاكرا ، واما كفورا » . « اما شاكرا » تعنى مصيبا ،
« واما كفورا » تعنى مخطئا ، وهكذا يرتجح العقل فى ارجوحة
الخطأ والصواب . وفى ذلك كماله « ان لم تحطوا وتستغفروا ،
فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » كما قال
المصنوم .

وقانون المعاوضة على مستويين : مستوى الحقيقة ،

ومستوى الشريعة ، وبينهما اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع
 .. فقانون المعاوضة في مستوى الحقيقة فوامه قوله تعالى « فمن
 يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »
 وقانون المعاوضة في مستوى الشريعة فوامه قوله تعالى « وكبيرا
 عليهم فيه ان النفس بالنفس ، والمئين بالعين ، والألف
 بالألف ، والادن بالادن ، والسن بالس ، والجروح قصاص ، فمن
 نصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
 الظالمون » .

« قانون المعاوضة في مستوى الحقيقة هو الإرادة التي بها يهر
 الله الموائم فأبرزها الى الوجود وسيرها الى الكسل ، وهو الحق
 ابدى ورد كثيرا في القرآن « ما خلقنا السموات والأرض وما
 بينهما الا بالحق وأجل مسمى راثنين كبروا عما ابدروا
 معرضون » وهو يقول أيضا « حتى السموات والأرض بالحق
 تعالى عما يشركون » ويقول « وما خلقنا السموات والأرض
 وما بينهما لاعين » ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم
 لا يعلمون » فالحق هو هذا القصاص الذي تحكيه أحكم
 حكاية الايتان ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل
 مثقال ذرة شرا يره » وعبارته « لاعين » في الآية السابقة تشير
 الى ما تشير اليه الايتان من قوله تعالى ، « أفحسبتم انما خلقناكم
 عبثا وانكم الينا لا ترجعون » فتعالى الله الملك الحق ، لا اله

الا هو رب العرش الكريم» وتعنى ان العوالم لا بد راجعة الى الله
بفعل قانون المعاوضة هذا « ليس بآمانيتكم ، ولا أمانى اهل
الكتاب ، من يعمل سوء يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا
نصيرا . »

وقانون المعاوضة فى مستوى الشريعة محاكاة محكمة لقانون
المعاوضة فى مستوى الحقيقة ، وهو يسير معه سيرا مصاقبا
ولكنه ، فى سبطاته العليا ، اكمل منه وأدق ، وهو يقع على ثلاث
مستويات ، ويحكيه قوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل ،
والاحسان ، وايتاء ذى القربى » والعدل هو القصاص فى مستوى
« العين بالعين ، والسن بالسن » ، « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . والاحسان هو العفو عن المسيء ،
« فمن تصدق به فهو كفارة له » كما ورد فى آية القصاص ،
« وايتاء ذى القربى » تمنى صلة الرحم فى معناها الواسع ، وهو
رحم الحياة . وهذه المستويات الثلاث تحكيها هذه الآية « وجزاء
سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحسب
الظالمين » قوله « جزاء سيئة سيئة مثلها » مستوى العدل
من درجة التامصف ، وانما سماها سيئة ليرغب عنها ، حيث أمكن
ذلك « ولمن صبر وغفر ، ان ذلك لمن عزم الأمور » وأما قوله
« فمن عفا » فهو مستوى الاحسان بترك المسيء ، وهو فوق العدل .
وأما قوله « وأصلح » فهو يعنى الرحمة بالمسيء ، والتعطف عليه ،

والتلطف به ، والمحبة له ، وذلك قمة الصلاح والاصلاح ، وهو
أعلى مستويات قانون المعاوضة في الشريعة .

ولما كان قانون المعاوضة ، في مستوى الحقيقة ، مراداً به
تسيير العوالم الى الله عن طريق الجسد — عن طريق القهر ،
فان قانون المعاوضة ، في مستوى الشريعة ، مراد به تسيير البشر
الى الله عن طريق العقل — عن طريق الحرية ، وفي ذلك الكرامة،
كل الكرامة ، للانسان . وفي هذا المقام يجي محديثاً عن العلاقة
بين الانسان والكون .

الفرد والكون في الاسلام

والعلاقة بين الانسان والكون ظلت مادة التلميح والتعلم ،
من لدن فجر الحياة البشرية والى يوم الناس هذا ، ولقد استعان
الانسان على استجلاء حقيقة هذه العلاقة بالدين ، وبالملم المادى ،
منذ النشأة ، فالدين والعلم المادى توأمان ، ولدا في وقت واحد ،
ودرجا معا ، وظلا يتماوانان في مدارج النسو . ولقد كان ميدان
العلم المادى لدى الانسان الأول صيقاً جداً ، وميدان الدين واسماً ،
فهو قد اعتنق جميع مظاهر الحياة المادية في البيئة الطبيعية ، وفيما
وراء المادة بالقدر الذى تعطيه الأحلام في النوم ، وتوجيه الأوهام
في اليقظة ، وهو لم يترك في حيز العلم المادى الا أشياء قليلة
أوحى طول الألفة بأنها لا تحتاج الى كثير احتفاء . كان الانسان
يشعر أن لكل شيء في الوجود روحاً ، ورسخت الأحلام فيه هذا

الشعور ، حتى لقد أصبح يصلى لكل شيء .. يصلى للصيد ،
ويصلى لرعايه ، ويصلى للحصاد ، ويصلى لساوول الطعام ، ويصلى
للسلاح . ثم أحدث الالفة والعادة بعمل عملها ، في رفع الرهبة
وامداسه عن الأشياء التي أعادها وفذر عليها ، فدخلت في منطقة
عنه التجريبي ، وأحدث بذلك دائرة العلم تريد ودائرة الدين
تصيق ، حتى جاء الوقت الحاضر ، حيث يرغم بعض المعمرين بالعلم
الحديث ان الدين لم تعد له مكانة في حياة الانسان المتحضر ، وما
كفر العلم ، ولكن بعض العلماء كفروا ، برسالة العلم ، وبرسالة
الدين معا . ذلك بأن العلم لم يدع انه يبحث عن جوهر الأشياء
وحقائقها ، وانما هو يبحث عن طواهرها وقوانين سلوكها ، فهو
يعرف خصائص الكهرباء ولا يعرف كنه الكهرباء . بل ان العلم
نفسه قد قرآن المادة ، كما يعرفها ، اسما هي مظهر لأمر وراءها لا
يعرف حقيقته . فقد قال اينشتاين ان المادة والقوى شيء واحد ،
وجاءت التجارب في اقلاق الدرة بتأييد هذا القول ، والقوى
غير معروفة الكنه ، وان كانت بعض القوانين التي توجه
سلوكها معروفة .

وفي الحق ان العلم الحديث داع الى الله بلسان بليغ ، فهو
يرينا كل يوم ، كيف ان العالم المحسوس ، اذا احسن استقصاؤه ،
يسوقنا الى عتبة عالم وراءه ، غير محسوس ، أو قل لا تدركه
الحواس على النحو المألوف ، ثم يتركنا هناك وقهرفا ، في خشوع
 واجلال ، نلتصق وسائل غير وسائل العلم التجريبي

المادى ، بما فهمدى فى مجاهيل الولدى المقدس ، الذى يسمع وراء عالم المادة التى نعرفها .

ان أبواب القلوب قد سمعوا ان الظواهر المادية تنادى الى الله بصوت عال يقول : انما نحن فتنة فلا تكفروا ! وان مطلوبكم أمامكم فلا تفنوا معنا !

قد أنى للانسان أن يعلم أن البيئة التى يعيش فيها انما هى بيئة روحية ذات مظهر مادى، وهذا اكتشاف جديد أقاده تقدم العلم المادى الأخير، وهو اكتشاف يواجه الانسان المعاصر بتحد حاسم ، ذلك بأن عليه أن يوائم بين حياته وبين بيئة هذه القديمة الجديدة ، ان كان لابد له أن يستمر حيا .

لقد كان الانسان الأول أحكم منا ، فى موقفنا الحاضر ، حين ظن ، أو قل علم ، أن لكل شئ فى الوجود روحا ، والآن، وقد استدار الوجود دورة تامة، فإن التاريخ سيعيد نفسه فى الأيام القليلة المقبلة ، وهو ، كما قررنا فى مستهل هذا السفر ، لن يعيد نفسه بصورة واحدة ، وانما يعيدها بصورة تشبه من بعض الوجوه ، وتختلف من بعضها ، عما كان عليه الأمر فى سابقه ، وسيكون وجه الشبه ، فى الدورة الجديدة ، علما ان بيئة روحية الجوهر ، مادية المظهر . وسيكون وجه الاختلاف ان أدراكنا هذا لن يكون ادراكا ساذجا ، جاهلا ، وانما هو ادراك حاذق ، عالم ، به يعود الدين ليعتق كل نشاطنا ، فى كل صغيرة وكبيرة . . يعود علما يتقدم بمنهاج للحياة متكامل،

يخاطب العقل ، ويحترمه ، ويحاول اقناعه بجدوى ممارسة منهاجه
 في الحياة اليومية ، في كل مصطربها ، لأمر معاشها ، وأمر معادها •
 لقد جاء الانسان الى هذه الحياة ولم يكن له في أمر مجيئه
 تدير ، ولا اختيار ، وهو يغادر هذه الحياة ، يوم يغادرها ، وليس
 له في ذلك تدير ، ولا اختيار • • والله تعالى يحدثنا في ذلك
 فيقول ، جل من قائل : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين
 * ثم جعلناه نطفه في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، فحلقتا
 العلقة مضغة ، فخلقنا المصغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم
 أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم انكم بعد
 ذلك لميتون * ثم انكم يوم القيامة تبعثون » وهذه الصورة
 القرآنية المتكاملة تعطينا صورة لموضعنا من الكون ، اذ نحن
 مسيرون فيه كالعناصر الصماء تماما ، ولن يكون لنا فضل عليها
 الا اذا استيقنت نفوسنا أمر هذا التسير ، ثم ادعنا له ، عن رضا ،
 وعن استسلام ، وعن علم ، ولقد خلقنا الله مستعدين لتحصيل هذا
 العلم ، ولقد أشار الى هذا الاستعداد بقوله تعالى « ثم
 أنشأناه خلقا آخر » من الآيات السابقة • وفي موضع آخر جاء
 البيان الواضح ، حيث قال : « واذا قال ربك للملائكة اني
 خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فاذا سويته وتفخت
 فيه من روحي فقموا له ساجدين » فهذا الخلق الآخر انما جاء من
 تمخ الروح الالهي فيه •

الارادة

والروح الالهى المنفوخ فى البشر هو الارادة .. والارادة صفة متوسطة بين صفتين .. من أعلاها العلم ومن أسفلها القدرة .. وبالعلم والارادة والقدرة أبرز الله العوالم الى حيز الوجود ، وكذلك البشر انما يعملون أعمالهم بالعلم والارادة والقدرة ، فوق الشبه بين الخالق والمخلوق ، والى ذلك الاشارة بقول المعصوم : « ان الله خلق آدم على صورته » .

والارادة لله بالأصالة ، وللانسان بالاعارة ، وهى هى الامانة التى أشار اليها تعالى فى قوله « انا عرضنا الامانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » .. « ظلوما » بادعائه لنفسه ما لغيره ، و « جهولا » بقدر فهمه ، حين ظن انه صاحب ارادة ، والذي ورطه فى هذا الظلم ، وهذا الجهل ، خفاء الأمر ، ودقة مأثاه ، ذلك بأن الله ، جلت حكمته ، سير الفازات ، والسوائل ، والجمادات ، تسييرا قاهرا ومباشرا ، « قل أنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها ، وللأرض ، أنيا طوعا أو كرها ، قالتا أيننا ملأين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى

كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك
تقدير العزيز العليم » .

وهذه هي بيئة الحياة ، فلما تهيأ المكان في الأرض خلق
فيها الحياة وأودع فيها « إرادة الحياة » وهي قوة تعمل ، بدوافع
حب النقاء ، للاحتفاظ بالحياة .. وقانونها السعي وراء اللذة ،
والصرار من الألم ، وأصبح تسيير الله للمخلوقات في هذا المستوى
وهو مستوى النبات والحيوان ، شبه مباشر ، ومن وراء حجاب
« إرادة الحياة » وهي انما سميت بإرادة الحياة لأنها تتمتع بما
يسمى الحركة التلقائية ، وذلك لأن دوافع حركتها ، وقوى
حركتها ، فيما يظهر ، مودعة فيها . وهي حركة يستخدمها
الحى في تحصيل قوته ، وفي الاحتفاظ بحياته ، والاحتفاظ
ببوعه .

ثم لما ارتقى الله تعالى بالحياة الى مرتبة الانسان ، زاد على
« إرادة الحياة » عنصرا جديدا هو « إرادة الحرية » ، وهي انما
تختلف عن إرادة الحياة اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع . ثم سیر
الله تعالى البشر من وراء إرادة الحياة ، ثم من وراء إرادة الحرية ،
وأصبح بذلك تسييره اياها غير مباشر ، وتدخله في أمرنا هو من اللطف
والدقة ، بحيث تورطنا في الوهم الأكبر .. فاعتقدنا أننا نملك
إرادة حرة مستقلة بالترك أو بالعمل .. واليكم آيات هن آية
في الدلالة على لطف تدخل إرادة الله في توجيه أرادتنا « إذ أتم

بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد، ولكن ليفضى الله أمرا كان معولا ، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم * اذيركم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكم كثيرا لمثلم ، ولتتارعتن فى الأمر . ولكن الله سلم ، انه عليم بدات الصدور * واذيركموهم ، اذا انقشتم ، فى أعينكم قليلا ، ويهلككم فى أعينهم ، ليقضى الله أمرا كان معولا ، والى الله ترجع الأمور» . فانظرواالى هذا اللطف اللطيف ، من جانب الارادة الالهية القدسية ، اد تدخل فى تير الارادة البشرية المحدثه ! !

فالنبى يرى أعداءه فى سامه قليلين فيصمم على مقاتلتهم ، ولو رآهم غير ذلك ماقاتلهم ، ثم عداللقاء ، يرى المؤمنون المشركين قليلين فيصمموا على قتالهم ، ويرى المشركون المؤمنين قليلين فيصمموا بدورهم على قتالهم . والله هو الذى يرى انبى أعداءه فى سامه قليلين ، والله هو الذى يرى كل فريق من الفريقين أعداءه قليلين ، ليقضى الله أمرا كان معولا . كل ذلك من غير ان نزعج «ارادة الحرية» ومن غير أن نشعر بتدخل خارجى فى أمر من أمورها ، يملأ عليها ، أو يسلبها حريتها .

خلق الله الانسان ضعيف البنية ، وبغير مغالب ولا أياب ، ليكون اعتماده على الحيلة أكثر من اعتماده على القوى الجسدية . وجمل مقولته طويلة ليكون اعتماده على الآخرين أكثر من

استقلاله بأمر نفسه • وضعف بنيته ، وطول طفولته الجاء
ليعيش في جماعات ، ولقد تحدثنا آتفا عن نشأة الجماعة ، وكيف
أنها أقامت العرف الذي يحدد نزوات للأفراد ، ولقد كان القتل
الزريع جزاء وفاقا لكل فرد يتورط في مخالفة العرف الذي
ارتضته الجماعة ، وقد يكون غضب الآلهة في انتظار هذا الفرد
بعد موته ، ليذيقه من ألوان المذاب فوق ما أذاقته الجماعة ،
ولقد كان الخوف من غضب الجماعة ، ومن غضب الآلهة
يؤرق الفرد ، وهو لا يزال يعمل عمله في حمل الأفراد على ترك
مخالفات القوانين •

وبنشأة المجتمع البشرى البدائي دخل صراع في البنية
الشرية بين قسوتين •• بين الحيوان القديم الذي يعمل
« بارادة الحياة » ، وقانونها السمي في تحصيل اللذة بكل
سبل ، وبين الانسان الحديث الذي يعمل « بارادة الحرية » ،
وقانونها تحصيل اللذة التي لا تتورط في غضب الجماعة ، ولا
غضب الآلهة ، بمخالفة العرف المرعى ، مما تكون عاقته ألما
باقيا في الحياة وبعد الممات •

فاذا كانت اللذة المبتغاة لا تتال إلا عن طريق مخالفة أمر
الجماعة ، وهو دائما أمر الآلهة ، فإن اتجاه ارادة الحرية التخلي
عن ابتغاء تلك اللذة ، رجاء الحصول على لذة أكبر منها ،
من ثواب الجماعة ، ومن ثواب الآلهة ، وذلك خير وأبقى • وبهذا
دخلت في الحياة القيم التي تجعل الفرد البشرى يسعى باللذة

الحاضرة في سبيل لذة مرتبة ، أو يضحي باللذة الحسية العاجلة في سبيل لذة معنوية عاجلة أو مؤجلة ، كرضا المجتمع عنه ، وحقه به ، وثناؤه عليه ، أو كرضا الآلهة عنه ، ومجازاتها إياه ، في هذه الحياة ، أو في الحياة المقبلة .

واستمر المجتمع البشرى ينمو ومع ينمو عرفه وعاداته ، ويتحدد هذا العرف ، ويتخذ صورا دقيقة ، وحاسمة ، ويجيء أنبياء الحقيقة ، ويدخل تشريع لحرام والحلال ، واعتبارات الجنة والنار ، وأوصاف الآلهة . فان أنبياء الحقيقة ، ورسول الإنسانية لم يحيثوا ليقولوا للناس أن لهم خالقا ، فان ذلك قد سبقتهم اليه رسل العقول . ولكنهم جاءوا ليعينوا العقول على معرفة الخالق وتعليمها أساءه وصغاته وأفعاله .

وأما أنوار العقول فانها قد نشأت من نار الاحتكاك الذي ظل جاريا بين « ارادة الحياة » و « ارادة الحرية » بفعل الحرف القديم ، الذي دفعته في قلب الانسان الأول القوى الصماء ، التي زخرت بها بيته الطبيعية التي عاش فيها .

ولقد قلنا ان ارادة الحرية لا تختلف عن ارادة الحياة اختلاف نوع ، وانما تختلف اختلاف مقدار ، ونعني أن ارادة الحرية هي الطرف الرقيق ، الشفاف ، من ارادة الحياة . . أو قل هي الروح ، حين تكون ارادة الحياة بمثابة النفس . . فارادة الحياة حواء البنية البشرية ، وارادة الحرية آدمها ، والعقل هو نتيجة اللقاء الجنسي بين آدمها وحوائها هذين . وفي مرتبة اللقاء الجنسي

الذى ينتج العقل فان لارادة الحياة اسما آخر ، هو الذاكرة ،
وارادة الحرية هي الخيال . والذاكرة هي حصيلة التجارب
السوالف جميعها ، ومن ثم فقد أسماها النفس ، في موضع
آخر ، وقد ورد أن القصاص المراد به تقوية الخيل عند من
يحتاج أن يوضع بالقصاص في موضع ضحيته . والخيال هو
اسم آخر للدكاء ، وهو القدرة الإدراكية ، والارادة الكاتبة
برعايب النفس التى لا يرضى عنها القانون . والدكاء يعمل
في توجيه رعايب النفس بفعل الخوف فيه - أو قل بفعل الرغبة
والرهبة فيه - وهو ، كلما أحسن السيطرة على رغائبها ،
كلما زاد قوة ومقدرة على التميز . وهى قد ترداد مطاوعة ، أو
تزداد تمردا ، تبعا لمقدرته هو على العدل ، أو عجزه عنه ،
وركوبه مركب العنف والسطوة .

واد ولد العقل في بيت منقسم ، من أبوين متشاكسين .
أم شهوانية ، جامحة ، شديدة النزوات ، كثيرة الرغائب ، وأب
ضعيف ، جبان يسوقه الخوف الى العنف ، فيرد مطالبها في شدة
وصرامة ، قد تبلغ به أن يحيف عليها ويكبتها في غير موجب
للكت ، فان ملقولاته لم تكن سعيدة ، بل كانت ملقولة مشردة ،
حائرة ، كثيرة الجنوح والانحراف ، وقد ظهرت عليه خصائص أبويه ،
وأثر فيه جو البيت الذى ولد فيه ، فجاء منقسما على نفسه
أيضا ، بعصه يقف في مناهضة بعضه الآخر ، وقديما قيل « البيت
المنقسم لا يقوم » .

ولقد ترسب الخوف في أغوار النفس منذ نشأة الحياة ، وقبل ظهور البشر على مسرحها ، ثم نشب الصراع الطويل بين « لراة الحياة » و « لراة الحرية » اللى صلب ظهور البشر على مسرح الحياة ، واللى لا يزال يتسعر ضرامه الى اليوم ، ولقد تنج عن هذا الصراع أن بعض الرغائب المحرمة ، واللى كانت تتحرك طليقة قبل ، قد كبست بالأغلال ، وكبست ، وأصبحت حبيسة في مراديب مظلمة من حواشى النفس . وكل هذه الرغائب أصيلة ، وكثيرمها ، لطول ما حبس في الظلام ، فقد البصر ، وعقد القدرة على الحركة ، ولكنه لم يمت ، وهو ينتظر أن يفرج عنه ، من هذا الحبس يوما من الأيام .

فالنفس البشرية اليوم معرضة لافات كثيرة . . خوف ترسب فيها قبل أن تصبح بشرية ، وذلك بين فجر الحياة البدائية الأولية ، وعهد ظهور البشر على المسرح ، وكبت موروث منذ ظهور المجتمع البشرى ، والى أن يولد أحدا ، ثم كبت مكتسب في حياة الفرد ، بين ميلاده ووفاته ، حيث يتسلط القانون ، والعرف ، والرأى العام على تكبيل رغائبه اللى لا تجد الموافقة على تحركاتها ، وتعبيراتها في حرية وطلاقة .

وكل الكبت بفعل الخوف ، فالخوف ، سواء كان الخوف البدائى ، الساذج ، الذى لا مبرر له ، أو كان الخوف العاقل ، الموزون ، المعروف الأسباب ، المعقولة ، قد ترك طابعه على النفس البشرية بصورة مزمنة .

والخوف ، من حيث هو ، هو الأب الشرعى لكل آفات الأخلاق
ومعاب السلوك ، ولن تتم كمالات الرجولة للرجل وهو حائف ، ولا
تتم كمالات الأنوثة للأنثى وهى خائفة ، فى أى مستوى من
الخوف ، وفى أى لون من ألوانه . فالكمال فى السلامة من الخوف .
ولن يتم تحرير الفرد من جميع صور الخوف الموروث الا
بالعلم . . العلم بدقائق حقيقة البيئة الطبيعية التى عاش ، ويعيش
فيها ، والتي كانت سببا مباشرا لترسيب الخوف فى أغوار نفسه ،
فإن الخوف جهل والجهل لا يحارب الا بالعلم . . ومن أجل
ذلك وجب الاهتمام باعطاء الفرد صورة كاملة ، وصحيحة ، عن
علاقته بالمجتمع ، وعن علاقته بالكون ، وهو ما نحن بصددده منذ
حين .

الجبر والاختيار

ومسألة الجبر والاختيار ، أو التسيير والتخير ، تمثل جماع
العلاقة بين الفرد والكون ، وهى مشكلة أعيت دقائقها الفكر
البشرى فى جميع عصوره ، وقد أنى لها أن تبرز من جديد ، وأن
تستحوذ على كل اهتمام المفكرين ، ذلك بأن ضرورة فهمها ، وهما
دقيما ، لا تجىء من قبيل الترف الذهنى ، كما قد يتبادر الى بعض
العقول . ولا هى مسألة لا تمنى فى أمر معيشتنا اليومية ، أثناء
الكسب والعرف ، كما قد يتبادر الى بعض العقول الأخرى ، وإنما
ضرورة فهمها تجىء من الحاجة الى المنهاج العلمى لتحقيق الحرية
الفردية المطلقة ، والحرية الفردية المطلقة هى منذ اليوم المركز الذى

منه تنفرع ، وتشع الحرية الجماعية ، بجميع صورها ، وفي كافة مسؤولياتها • تدخل في ذلك معيشتنا اليومية ، أثناء الكسب وأثناء الصرف •

والسؤال المزمع هو ، هل الانسان مسير الى مصير مبرم ؟ أم هل هو منقوض اليه ليختار في أمر متأنف ؟

لقد قرر المعصوم في هذا تقريرا فيه لحاجة المؤمن غناء ، كل الغناء ، وذلك حين قال : « من آمن فقد آمن بقضاء وقدر ، ومن كفر فقد كفر بقضاء وقدر ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » ولما قال بمض الأصحاب « فقيم التعب ابن يا رسول الله ؟ » قال « أعملوا فكل مسير لما خلق له » فانصرف الأصحاب لعملهم ، واعتصموا بإيمانهم ، فمعصمهم ووسمهم • « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم » •

فحاجة المؤمن مكفية بالإيمان نفسه ، ولكن حاجة المسلم هي التي تحتاج الى مزيد من العلم يدخل بها مداخل اليقين ، ويحرز لها طمأنينة القلب • ألم تر الى ابراهيم الخليل « واذا قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ! ولكن ليطمئن قلبي ! قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن ، ياتينك سعيًا ، وأعلم أن الله عزير حكيم » •

ولقد خلف من بعد الأصحاب ، خلف لم يسعهم في هذا الأمر

ما وسع الأصحاب، فبدأ لبعضهم ، وهم أصحاب الرأي ، أن التمييز المطلق مع العقاب على الخطيئة يشبه قول من قال :

أَنَّهُ في اليوم مكتوب وقال لـ هـ إياك إياك أن تبطل بالماء وهذا ظلم ، ولما كان الله تبارك وتعالى منزها عن الظلم ، ولما كان العقاب على الخطيئة ثابتا ، في الشريعة وفي الدين ، فلم يبق إلا أن يكون الإنسان متمتعاً بشيء من الاختيار ، به يستحق العقاب ، حين يعطى . ، ويستأهل الثواب ، حين يصيب . وكذلك اعتقدوا ، فتورطوا في الشرك من حيث أرادوا التنزيه . . . ومد هؤلاء في غيهم أمران : أولهما أن البداهة ، وطاهر الأمر ، توحى بأن للإنسان اختياراً يبدو في حركاته الاختيارية ، فهو يستطيع أن يمشي ، أن شاء ، أو أن يجلس ، أو أن يقف ، هذا إلى جملة حركات أخرى ، وسكنات ، كلها تقع تحت اختياره وإرادته . وثانيهما أن ظواهر القرآن تقرر الإنسان على ما أعطته إياه هذه البداهة المعاشة .

وهناك أصحابنا الصوفية ، وهم ، في عمومهم ، قد حاولوا أن يكتفوا ، من هذا الأمر ، بما اكتفى به الأصحاب ، ولكن حكم الوقت ، والحاح الفرق الأخرى ، قد اضطر بعضهم أن يقرر أن الإنسان مسير ، في كل صغيرة وكبيرة من أموره ، وأنه مع ذلك ، معاقب بالأساءة ، مجازى بالاحسان . وليس الله ، في كل أولئك ، بظالم ، لأنه لم يتصرف في ملك غيره . واضطر البعض الآخر أن يقرر التمييز المطلق مع العقوبة ، ثم خرج عن

مسألة الظلم هذه بقول الله تعالى، « لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون » .

وأجمع كبار عارفيهم على أن التوفيق بين التسيير المطلق ، وهو أمر يوجب التوحيد ، والمقاب ، والعدل الإلهي ، لا يلتبس في حكمة المقاب . وذهبوا في البيان مذاهب كانت وافية بحاجة عصرهم ، والمصور التي تلتها إلى يومنا هذا ، ولكننا ما نرى أنها تكفي حاجة الفكر الحديث ، منذ اليوم .

القرآن والجبر والاختيار

ولقد بنى أصحاب الرأي رأيهم على القرآن ، وساقوا منه آيات ينيات للتدليل على صدقهم ، ولقد بنى الصوفية ، وهم يهزون من أصحاب الرأي موقف التقيص من التقيص ، مذهبهم على القرآن أيضا ، وساقوا منه آيات ينيات للتدليل على صدقهم . ولقد ورطت هذه الظاهرة القريبة كثيرا من المستشرقين ، من عوا بدراسة القرآن ، في خطأ جسيم ، فظنوا أن بعض القرآن يناقض بعضا ، وأسرفوا في ذلك على أنفسهم ، وعلى مواطنيهم ، والحق ، في هذا الأمر ، أن للقرآن طاهرا وباطنا ، فظاهره عنى بظواهر الأشياء ، وباطنه قام على الحقائق المركوزة وراء الظواهر ، ثم اتخذ ، في نهجه التعليمي ، الظواهر مجازا يعبر منها العارف إلى البواطن ، وهو في ذلك يقول « سرهم آياتنا » .

فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف
يربك انه على كل شىء شهيد ؟ والظواهر هنا آيات الآفاق ،
والبواطن آيات النفوس ، وأبواب العقل على آيات الآفاق هى
الحواس ، والحواس قد جاءت كلها مثنى ، من يمين وشمال ،
على تفاوت فى القوة بينهما ، فينتج عن هذا أن ما تؤديه العين
اليمنى ، الى العقل ، من الشىء المرئى ، يختلف عما تؤديه العين
اليسرى منه اليه . وليست صحة الأمر بينهما . وهذا يعنى أن
تجرى غلبة فى العقل ، بها يتخلص ما يسمى خداع الحواس ،
ويتخلص الى الأمر على ما هو عليه فى الحق .

وكثير من العقول الساذجة لا تملك القدرة على الانعتاق من
أسر الحواس ، والعقول ، على إطلاقها ، شديدة الاعتماد على
معطيات الحواس ، ولما كان القرآن كتاب عقيدة ، وشريعة ،
وحقيقة ، ولما لم تكن الى حقيقته من سبيل الا عن طريق عقيدته ،
فشريعتة ، ولما لم يكن من مصلحة العقيدة أن تصادم دعوتها ما
تعطيه البداة المشاهدة بالعين ، فانه جاءنا بظاهر يجارى الوهم
الذى اعطينا آياه الحواس عن عالم الظاهر ، وبباطن يرتكز على
الحق الصراح . وهو ، بمجاراتنا فى وهمنا ، انما أراد أن يرفع
عنا المشقة ، حيث لم يكن موجب للمشقة ، ريثما ينقلنا ، على
حكث ، الى الحق . ولنسق على ذلك مثلين : مثلاً فى مستوى
مجارة وهم الحواس ، وهو وهم غليظ ، ومثلاً فى مجارة وهم

العقل ، وهو وهم دقيق : فأما المثل الاول ، فأن القرآن عند ما جاء يدعو الى العقيدة قوما يرون بأعينهم ان الأرض مسطحة ، لهم يشأ ان يجمع عليهم ، الى مشقة الدعوة الى عقيدة في الاله جديدة ، مشقة الدعوة الى فكرة جديدة ، عن الأرض ، تناقض البديهة المرئية بالعين ، فجاء في سياقه بآيات عن الأرض لم تزعج المدعوين عما ألقوا من أمرها ، فقال « والسماء بانيها بأيدي وانا لموسعون » * والأرض فرشناها فعمم المأهدون « وقال « ألم نجعل الأرض مهادا » * والجبال أوتادا ؟ « وقال « والأرض بعد ذلك حجاب » * أخرج منها ماءها ومرعاها « وقال « والأرض مددناها ، والقينا فيها رواسي ، وانتنا فيها من كل شيء موزون » ، فإذا دخلوا في العقيدة ، وعملوا بالشرعة ، تبين لهم ان الأرض ليست مسطحة الا فيما ترى العين ، وليس الى الحقيقة من سبيل اذا أسقطنا ما ترى العين ، كل الاسقاط ، من حسابنا ، كما انه ليس الى الحقيقة وصول اذا ظللنا أسرى أوهام الحواس ، وانما الرشد ان نجعل ما ترى الابصار مجازا الى ما ترى العقول ، وما ترى العقول مجازا الى ما ترى القلوب ، وهو الحق ، ثم هو الحقيقة ، في التينة بعد التينة .

والمثل الذي يجارى وهم العقل تمطيه هاتان الآيتان ، « لمن شاء منكم ان يستقيم » وما تشامون الا أن يشاء الله رب العالمين « فأن السالك المجود ، وهو في اول الطريق ، اذا قرأهما :

فهم من أولاهما ان له مشيئة مستقلة تملك ان تستقيم ، كما
تمتلك ان تلتوى ، ولم يفهم من ثابتهما الا ما تعطيه اللغة، ويجتهد
في سبيل الاستقامة في تسمير واحد ، حتى اذا بضجت تجربته
بالمجاهدة ، ومصاهرة النفس ، علم يقينا انه لا يملك مع الله
مشيئة ، واصبح الخطاب في حقه ، ساعتئذ ، قوله تعالى «وما
شاءون الا ان يشاء الله رب العالمين » ويعرف ان قوله تعالى
« لمر شاء منكم ان يستقيم » قد أصبح في حقه مسوخا ، بعد
أن تخلص من وهم عقله . هذامع الفهم الأكيد للحكمة التي
من أجلها جاءت هذه الآية الكريمة .

والقرآن ساق معانيه مثالي . . معنى قريبا في مستوى الطاهر،
ومعنى بعيدا في دقائق الباطن ، ولكن أصحاب الرأي لم يفتوا
الى ذلك ، فجعلوا الآيات التي تحارى أوهام الحواس ، والتي
تحارى أوهام العقول ، سدهم، وبنوا عليها علمهم ، فضلوا
كثيرا ، وأضلوا .

وأما الصوفية فقد تفتنوا الى ذلك ، وعلموا أن أوهام
الحواس ، وأوهام العقول ، يجب التخلص منها بأساليب العبادة
المجودة ، التي تبلغ بهم منازل اليقين المحمية بحجب الظلمات ،
وحجب الأنوار .

القرآن والتفسير

« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا حسارا » ومن الظالمين من يمتد على العقل ، في فهم حقائق الدين ، كل الاعتماد .

والقرآن قد جعل وكده تركيز فهم السير في العقول ، بالطائفة المستفيضة من آياته ، فاذا استقرت مدركات العقول في طوايا الصدور ، ظهر أن ليس في القرآن حرف لا يدعو الى وحدة الفاعل . . فوحدة الفاعل هي أصل التوحيد ، وقاعدته ، وتجويد وحدة الفاعل تتبع كل مستويات التوحيد الأخرى . وأمر التفسير هو وحدة الفاعل هذه . فليستع الى طائفة من هذه الآيات « هو الذي يسيركم في البر ، والبحر ، حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظلوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله ، محلصين له الدين ، لئن أمجيتنا من هذه لكونن من الشاكرين » فلما أنجاهم لذا هم ييمون في الأرض بغير الحق ، يأبى الناس انما بفيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم ، فننبئكم بما كنتم تعملون . »

هذا أوضح كلام في التفسير الالهى للناس ، وقد أشار اشارة لطيفة الى علة الغفلة ، وهي سعة الحيلة ، فاننا اذا احتلنا في

أمورنا ، ، ونجعت حيلتنا في حل مشاكلنا ، مد لنا هذا النجاح في أسباب الفعالة ، فتوهما اننا أصحاب ارادة مختارة . والحيلة في البر أوسع منها في البحر ، ولذلك قال « هو الذي يسيركم في البر والبحر » ثم ذهب يفصل أهوال البحر التي تظهر أمامها قلة حيلتنا وعندها « دعوا الله ، محلصين له الدين ، لنن أجيئنا من هذه لتكوين من الشاكين » فلما جاءت دعوتهم بلسان حالهم أنجاهم ، تبارك وتعالى ، ثم قص علينا ما كان من أمرهم فقال « فلما أنجاهم اذا هم يعصون في الأرض بغير الحق » يعني لما خرجوا من أهوال البحر ، ووطنوا البر ، واستثمروا القدرة على الحيلة ، رجعت اليهم غفلتهم ، وادعوا ارادة واختيارا . وهو هنا يذكرنا بأن الذي يسيرنا في البر هو الذي يسيرنا في البحر ، فيجب ألا نكون من الغافلين .

وقوله تعالى « أنى توكلت على الله ، ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بصيرتها ، ان ربى على سراط مستقيم » وقوله تعالى « أفسير دين الله يعفون ، وله أسلم من في السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون ؟ » وقوله تعالى « أم حملوا الله شركاء خلقوا كخلقهم فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار » وقوله تعالى « تسبح له السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا » وقوله تعالى

« والله خلقكم وما تعملون » أى خلقكم وخلق أعمالكم • وقوله تعالى « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم ، الا فى كتاب ، من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير » لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور • الدين يجعلون ويأمرون الناس بالبطل ، ومن يتول فإن الله هو الفنى الحميد وفى جميع هذه الآيات حكمة تربوية بالغة ، يستفيد منها من يستيقن أمر التسيير •

التسيير ما هو ؟

أول ما يجب توكيده هو أن الله لا يسير اناس الى الخطيئة ، وانما يسيروهم الى الصواب ، قال تعالى عن لسان هود « انى توكلت على الله ، ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربي على سراط مستقيم • » ومعنى هذا أن الله يسير كل دابة على السراط المستقيم ، وكل دابة مهتدية ، حالا ، ومآلا ، ما دامت فى طاعة الله ، وليس شيء فى الوجود يبعث على هذه الطاعة ، ولكن الله سارك وتعالى يريد أن يكون المطيع مدركا لهذه الطاعة ، وبهذا وضع خط فاصل بين الهدى والضلال ، ما دونه ضال ، ومن فوقه مهتد ، وهنا دخل اعتبار الايمان والكفر • وليس الاختلاف بين الايمان والكفر اختلاف نوع ، وانما هو اختلاف مقدار ، فالمؤمن علمه أكثر من الكافر • • أو قل

ان المؤمن يطيع الله وهو عالم بذلك ، والكافر يطيع الله وهو جاهل بذلك . والله تعالى يقول « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ » ، وهو العزيز الحكيم « هو يعلم ذلك ولكم لا تعلمون ، وهو يريد لهم أن يعلموا . » هل يـؤى الدين يعلمون والدين لا يعلمون ؟ »

ان ارادة الله لا تمصى ، ولكن الله يريد أن يفل الخلاق من طاعة ما يريد ، الى طاعة ما يرضى ، هاته سبحانه وتعالى أراد شيئاً لم يرضه . فهو تعالى يقول « ان تكفروا فان الله عنى عكم ، ولا يرضى لماده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم . » فكانه يقول ، ان تكفروا فانكم لم تكفروا معالية لله ، وانما كفرتم برادته ، ولكنه لا يرضى منكم ما اراده لكم . والرصا هو الطرف الرفيع من الارادة . أو هو قمة هرم قاعدته الارادة ، فالارادة في مرتبة « الثائية » ، والرضا في مرتبة « الفردانية » ، ففى الارادة يدخل الكفر والايمان ، ولكن بالرصا لا يدخل الا الايمان .

والأمر التكويني أعلى من الارادة . فمقتنه رضا وقاعدته ارادة فهو هرم مكمل ، وتفصيل ذلك نجى في آخر رس حيث يقول جل من قائل « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . والأمر التشريعى يمثل قمة هرم الأمر التكويني ، حين تكون قاعدته

ارادة ، والله تعالى حين قال « واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفينها ، فمستقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »
 انما أراد بالأمر هنا الأمر التكويني في مستوى قاعدة هرمه ،
 وهو ارادة • وحين قال « واذا فعلوا فاحشة دالوا وجدنا عليها
 آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل لن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على
 الله ما لا تعلمون ؟ » انما أراد الأمر التشريعي ومعنى « ان الله
 لا يأمر بالفحشاء » ان الله لا يرسل رسلا ، ويؤيدهم
 بالمعجزات ، ثم تكون شرائعهم داعية الى الفحشاء « ما كان
 لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم ، والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا
 عبادا لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون
 الكتاب ، وبما كنتم تدرسون » ولا يأمركم أن تتحدوا الملائكة
 واليبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ؟ •

فالأمر التشريعي دعوة لاجراج الناس من ارادة الله الى
 رضاه تعالى ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل ، وأزل الكتب ،
 وقال فيها « لن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ،
 وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يسطكم لعلكم تذكرون »
 ومع أن الأمر التشريعي وحدة ، اذا ما قورن بالارادة ،
 فإنه ، لدى النظر الدقيق ، ذو شكل هرمي أيضا ، قاعدته
 الشريعة الجماعية ، وقمة الشريعة الفردية ، وقمة هرم الأمر
 التشريعي هذه ، تكون لقمة هرم الأمر التكويني قاعدة ،
 وهذا الأخير قمته عند الله ، حيث لا حيث • والى هذه القمة

اندقيقة . المعة في الدقة ، الاشارة بقوله تعالى « انا كل
 شئ خلقناه بقدر ، وما امرنا الا واحدة كلميح بالبصر »
 وهكذا يظهر بوصوح هرم الكائنات ، قفته التزل الأول
 اى مرتبة الاسم ، وهو مرتبة الشربة الفردية وقاعدته التزل
 الأخير الى مرتبة الفعل ، وهو مرتبة التعدد . في الأحياء
 والعنصر . وأسفل السافلين بها الدخان ، وهو بخار الماء .
 ومنه خلقت الأشياء ، والأحياء . قال تعالى : « ثم استوى الى
 السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ،
 قالتا آتينا طائعين » فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى
 في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ،
 ذلك تقدير العزيز العليم » وأدى من ذلك الى قاعدة هرم الخليفة
 قوله تعالى عن هذا الدخان « أولم ير الذين كفروا أن السموات
 والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شئ حي ،
 أفلا يؤمنون ؟ » وحيى كانت قمة هذا الهرم عند الله فقد كانت
 القاعدة بعيدة عنه ، وليس العد هنا بعد مفاقة ، وانما
 هو بعد درجة . فقمة هرم الخليفة ، وهى مرتبة الشربة
 الفردية ، في عالم الملكوت . وقاعدة الهرم في عالم الملك ،
 وعالم الملكوت مهيم على عالم الملك ، حتى أن عالم الملك بمثابة
 الظلال لعالم الملكوت ، فعالم الملك هو عالم الظاهر ، وعالم
 الملكوت هو عالم الباطن ، أو قل عالم الملك هو العالم
 المحسوس ، حيث التعدد ، وعالم الملكوت هو عالم المعانى ، حيث

الوحدة ، وليس معنى هذا أن ليس في عالم الملكوت محسوس ،
ولكن معناه أن محسوسه هو من اللطف بحيث لا يحس إلا
بالحاسة السابعة .. وسلاطان العاشقين ، ابن عارضى انما
عنى هذا اللطف اللطيف حين قال :
ولطف الأواني في الحقيقة تابع

للطف المعاني والمعاني بها تنمو

ذلك بأن لكل معنى حسا ، ولكل حقيقة شربة ، فكل معنى
من المعاني ، أو حقيقة من الحقائق هي ذات شكل هرمي ،
له قمة وله قاعدة ، وكلما دقت القمة دقت القاعدة تبعا لذلك ،
أو قل ، لن شئت ، كلما دق المعنى دق الحس .

قال تبارك وتعالى « فسبحان الذي بيده ملكوت كل
شيء ، وإليه ترجعون » ملكوت كل شيء هو قدرته . وإليه ترجعون
توكيد لهذا الفهم ، لأن الرجوع إلى الله انما يكون بتقريب
صفات العبد من صفات الرب . فكأن الحقائق مسيرة إلى
فردياتها بجمعيتها ، من العدد في الوحدة ، بفضل التوحيد .
قوله تعالى « والذين واليتون » وطلوب سين *
وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم
رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،
فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس
الله بأحكم الحاكمين » .. لقد ذكرنا أن ظاهر التمرآن عني
آيات الأفاق ، وباطنه عني آيات النفس البشرية .

والكرامة عند الله للبشر ، وليس للموت ولا بالارض ، بل ان السلة عند الله اكرم من الشمس ، لان السلة دخلت في سلة من الحياة والموت ، لم تشرف بها الشمس ، وهي تطلع اليها ، وترجوها بشئ النفس . ومن اجل ذلك فابا ن تحدث من تفسير الطاهر في هذه الايات ، ومن اراده فليتبسسه في أى من كتب التفسير ، فهو مبذول .

اقسم الله بنفسه حين اقسم بئوى النفس البشرية « يا ايها اسس اموا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها روحها ، واثمها رجالا كثيرا ، وساء ، واتقوا الله الذى تساءلون » ، والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » وهذه نفس الواحدة التى خلقها منها ما هى معه ببارك وتعالى .

و « انى » النفس ، و « الريبون » الروح ، و « طور سينين » البخل ، و « هذا اليد الامين » القاب ، . وقد ألعنا القول بأن العقل هو نتيجة لقاح النفس والروح ، ونقول هنا أن العقل هو طبيعة القلب ، ورائده الى المعرفة ، وهو له بمثابة عكاز الأعمى ، ينحس به الطريق ، ار قل ، ان شئت ، لأن العقل يقوم من القلب مقام الحواس به هو . وهو حين يقوى ، ويستحصد ، ويصبح يتلقى مداركه عن الحواس جميعها في كل لحظة ، يصير الحاسة السادسة المرتقبة ، ذلك بأن الحياة انما بدأت بحاسة واحدة ثم تقدمت ، في سحق الاماد ، الى الحاسة الثانية ، الثالثة ، والرابعة ، والخامسة ، وهي

منطلقة في طريقها الى الخامسة السادسة ، ثم الحاسة السابعة ،
وتلك نهاية المطاف . ولا يكون الترقى بعدها الا بتطوير هذه
الحواس السبع نفسها ، لا بزيادة في العدد عليها . فالحاسة
السادسة ادن هي العقل ، حين يستحصد ، ويصح قادرا على
أن يذوق ، ويشم ، ويلبس ، ويرى ، ويسمع ، كل شيء ، وفي
لحظة واحدة . فادا بلغ العقل هذا المبلغ ، فانه يعرف قدر
نفسه ، ويعلم أن مكانه حلف القلب لا أمامه ، ويسمع ،
ويحاول أن يطيع ، قول المعارف الجيد . « ونقدم اماما كب
اب أمامه » . ولكن طاعه هذا الأمر هي أشق الأشياء عليه ،
وهي لا تتحقق الا الفية بعد الفية ، وفي قمة السلوك
المجود . ولا يطول المكث فيها . إذ فيها يرد الخطاب من حصر
القلب ، على موسى العقل « انك ان تستطيع معي صبرا » ولكن
هذه اللحظة القصيرة ، التي يطيها موسى كل فرد مع حصره ،
هي زنة الدهر الدهير ، لأنها خارج الدهر . . وهي مقام
« ما زاع البصر ، وما طفى » وعدها يشاهد السالك من
لبس يحويه الدهر . . هذا مقام الشهود الداتى بسفهوط كل
الرسائط ، في تلك اللحظة يبلغ القلب مبلغ الحاسة السابعة وفيها
يكون السالك وترا .

ثم لن يلبث العقل أن يفركه ضعفه ، فيجهل قدر نفسه ،
ويتقدم على القلب ، وعندها يصبح العابد شعما ، ويحجب
بأنوار العقل عن شهود الدات ، ولا يشهد الاتجايتها في مرتبة

الاسم ، أوفى مرتبة الصفة ، أو في مرتبة الفعل ، وأدناها مرتبة وحدة التفاعل ، والسالك في مراتب حجب الجور صاحب شرك خفى ، وهو صاحب شريعة فردية ، ومن ثم فهو في ملكوته .

قوله تعالى من الآيات السوائف « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » اشارة الى خلقه في عالم الملكوت ، وهو قصة هرم الخليفة ، وذلك في عالم الامر ، وقوله « ثم رددناه أسفل سافلين » اشارة الى خلقه في عالم الملك ، وهو قاعدة هرم الخليفة ، وذلك عالم الخلق « ألا له الخلق والامر » وعالم الخلق هو أيضا الذي اشار اليه بقوله « انا كل شيء خلقناه بقدر » وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » وقصة الخلق في أحسن تقويم ، ثم الرد الى أسفل سافلين ، تحكيها هذه الآيات « واد قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها . وفسدك السماء ونحن نبح بحمدك ، ووقدس لك ؟ قال أنى أعلم ما لا تعلمون » وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرصهم على الملائكة فقال ، استوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم » قال يا آدم انبئهم باسمائهم ، فلما انباهم بأسمائهم قال ، ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات ، والأرض وأعلم ما تبدون بأقاوما كنتم تكتمون ؟ » واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس ، أبى واستكبر ، وكان

من الكافرين * وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين * فأرأى الشيطان عها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا ، بمصكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين * فلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم منى هدى ، فمن نسي هدى ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون * والذين كفروا ، وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون »

خلق آدم في عالم الامر كاملا ، وعالما ، وحرا وكان حريته منحة لم يدفع ثمنها ، فأنحه الله ليرى كيف يصنع فيها ، فقال « يا آدم اسكن اب وزوجك الجنة . وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » وكانت الشجرة التي نهى عهاى نفسه ، في الباطن ، وروحه في الظاهر ، فلم يحس التصرف في حريته فيؤثر امر الله على امر نفسه ، واما اختار نفسه عن ربه ، وفسق عن أمره ، ، اتصل بزوجه ، فصودرت حريته ، اد عجز عن حسن التصرف عها ، وهبط الى حيث يلقي غنوبة المخالفة ، وحيث يبدأ في استرداد حريته بدفع ثمنها ، حتى تكون عزيزة عنده ، فلا يصرط فيها مرة أخرى ، لان الحرية التي لا يدفع ثمنها لا تعرف قيمتها ، ولا يدافع عنها . قال تبارك وتعالى يحذر حسه

محمدا من حالة آدم « فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه ، وقل رب زدني علما * ولقد عهدنا الى آدم من قبل نسي ، ولم نجد له عزما * » ولقد عهدنا الى آدم « يعى أخذنا عليه عهدا بأن يحسن التصرف في حريته فيحار الله دائما » « فسى ولم نجد له عزما » سى عهدنا ، وضعف عزمه عن انترام واحب الحرية ، فتهاك امام اغراء روحه ، ورغبة نفسه ، فأساء استعمال حريته فصادرها « و » كذلك فصل بالمجرمين »

وحين عصى آدم ربه عن سيان ، وعن ضعف عن مراعاة النفس ، عصاه ابليس عن قصد ميت ، وعن استكبار ، وبعد قس الله علينا من حبه فقال « اد قال ربك للملائكة امي خاشع سرا من طين * فاداسوينه ، وتفتت فيه من روحى ، ففعمواله ساحدين * فسجد الملائكة كلهم اجمعون * الا ابليس ، استكبر ، وكان من الكافرين * قال يا ابليس ما معك ان تسجد لما خلقت بيدي ، استكبرت أم كنت من العالين ؟ قال انا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ! * قال فأخرج منها ، فانك رحيم * وان عليك لعنتى الى يوم الدين * قال رب فأظرني الى يوم يبعثون * قال فانك من المطرئين * الى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأعوينهم اجمعين * الا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأ جهنم منك ، ومن تبعك منهم اجمعين » وقد

كان إبليس عابداً ، ولكنه كان متكبرا ، فحجب نفسه عن ربه ، ولم تسمع عبادته ، وكان إبليس عالماً ، ولكن علمه كان علم ظاهر ، ولم يصحب بعلم باطن ، ولذلك لم يكن نهيًا ، ولا كان ذكياً ، فهو يسم بركة الله ، « قال جبرئيل لأعويهم أجمعين » ثم يستكبر عن طاعة الله . . . وهو اد فاته التقوى لم يفكر في الاستعصار ، عند المعصية ، وأما فكر في الإصرار عليها ، وطلب الإمهال ليجد الفرصة إلى الأعراء بها ، « قال رب فأطرس إلى يوم يبعثون » ولما قال تعالى « فانك من المظرين » إلى يوم الوفاء المعلوم « قال هو » فمريكم لأعويهم أجمعين » الأعداء منهم المحلصين « والآية الأخيرة من دلائل علمه ، اد عام ان عباد الله المحلصين لا طاقه له بهم ، ولكن علمه كما قلنا علم ظاهر بلا تقوى في الباطن . وأما آدم وحواء فقد قال « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا ، لكسبون من الخاسرين » .

ومهما يكن من الأمر فإنهم جميعاً قد عصوا أمر ربهم ، وصاروا بالمصيبة علاظاً ، كثافاً ، غير منجمين مع تلك البيئة اللطيفة ، فبط بهم وزنهم الكثيف ، من سلم الترقى إلى اندرك ، وهو ماسى في آيات « والتين » أسفل سافلين ، وكان ترتيبهم في الهبوط إبليس أولاً ، متبوعاً بحواء ، ثم آدم ، وفي بيئتهم الجديدة احتوتهم الشرور ، من كل جفاف ، ولكنهم ما لبثوا ان أقلموا ، وسوا ما كانوا فيه

من كمال الا قليلا ، واستجاب الله دعاء ابليس ، فانظره الى
يوم يبعثون ، فلبث في أسفل سافلين ، من غير ترق منه ، لانه
لم يطلب الترقى ، وانما طلب الانظار . واستجاب الله دعاء
آدم وحواء ، فلم يلبثا في أسفل سافلين الا ريثما أدركتهما المغفرة
والرحمة التي طلباها في ساعة محالتهما أمر ربهما «ان رحمة الله
قريب من المحسنين » .

وقد يظن ظلك حين اقرأ في الآيات السجوات من سورة
« والتين » قوله تعالى « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،
فلهم أجر غير ممنون » ان الاستثناء هنا يعنى انهم لم يردوا الى أسفل
سافلين ، وهذا خطأ . والحق ان هذه الآية وساققتها تؤيدان
المعى المؤدى بقوله تعالى « وان منكم الا واردها ، كان على ربك
حكما مقصيا » ثم تنجى الذين اتقوا ، وبذر الظالمين فيها جثيا »
فحي ، من أسفل سافلين ، آدم وحواء وبدأ ترقيهما ، بفعل
المعرة والرحمة ، وترك ابليس ، حيث لم يفكر في التغيير .
قوله « فما يكذبك بعد بالدين ؟ » الدين الجزاء ، وهو
المعاوضة ، وهو القصاص ، وفيه اشارة الى قانون القصاص ،
الذى قلنا ان الاسلام بى عليه حقيقته ، وشرعيته ، والاشارة
ترمى الى ارشادنا الى أن الانسان ، انما رد من مقام أحسن تقويم ،
الى درك أسفل سافلين ، بحكم قانون المعاوضة ، جزاء وفاقا .
قوله « أليس الله بأحكم الحاكمين » تركية لقانون
المعاوضة ، وتذكير لنا بالحكمة للودعة فيه .

المغفرة لآدم وحواء

كيف غفر لآدم ؟ ان الله امر الملائكة أن يسجدوا لآدم فأطاعوا ، وأمر ابليس أن يسجد لآدم فعصا ، فأما الملائكة فقد أمدعوا الأمر التشريعي ، وهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وأما ابليس فقد عصا الأمر التشريعي ، ولكنه ، بالمعصية ، أطاع الأمر التكويني ، وليس له من ذلك يد . والسجود يمتنى تسخير الملائكة لآدم ، وتسخير ابليس ، على تفاوت في التسخيرين . فتسخير الملائكة اعانة على الخير ، وهداية الى الحق ، وتسخير ابليس دلالة على الشر ، واصلال عن الحق ، وآدم متنازع بين الخير من أعلى ، والشر من أسفل ، وهو في الحالتين سائر الى الله . « وأسمع عليكم لعمه طاهرة واطمة » فالعم الطاهرة هي الموافق ، والسمع الباطلة هي المصائب . وكلها رحمة ، وإن كانت النفوس تمر من المصائب ، وترتاح الى الموافق ، ولكن الله بارك وتعالى يقول « كب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون » ، وكل المعية في همن العلم .

فإذا تصورت أول مخلوق شرى قائم على لحظ الدامل بين الحيوانية والانسانية ، وتصورته رأس سهم التطور ، فقد تصورت آدم الخليفة في الأرض ، وهو في مرحلة من مراحل تطوره من بدايات حقيقة ، ولكنها مرحلة تحويلية ، دخلها

بهمرة فريدة ، تنبت عن استجبايع فصائل شتى ، احتزبها أثناء تطوره الطويل ، المرير ، من تلك البدايات السحيقة ، وتلك الفترة هي المعبر عنها بقوله تعالى « ثم أنشأناه جنبا آخر » من الايات الكريمة « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم جعلنا النطفة علقة ، فعلقها الملقه بمصغه ، فجعلنا المصغه عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين »

وهي يمينها المعبر عنها بقوله تعالى « ونفخ فيه من روحى » من الايتين الكريمين « واد فاك ربك لفلانك انى خالق شرا من صلصال من حمأ مسون * فاذا سويته ، ونفخ فيه من روحى ، فقموا له ساجدين » . « فاذا سويته » هذه ، تشير ، بأجمال مختصر ، الى سلسلة التطور التى بدأت من بخار الماء ، حيث كانت السموات والأرض سخابة واحدة ، والى أن استعد المكان لسمع الروح الإلهى فيه . ولقد قلنا أن الروح الإلهى هو « ارادة الحرية » التى بوجب « ارادة الحياة » فارتفع بها الانسان فجأة فوق الحيوانات العليا . ولم توجد ارادة الحرية فجأة بعد عدم ، وانما برزت بعد كمون طويل هى بمثابة الرتبة الى محضها المراك من لس الحياة ، ولقد تحدثنا عنها آفا وقلنا انها دخلت فى عراك مع ارادة الحياة ، وان العقل نسيحة هذا اللقاء .

وارادة الحياة بتت من الأرض ، وعوامل السماء فيها

موجودة ، ولكنها أضعف من عوامل الأرض • وإرادة الحرية
نشأت من الأرض ، ولكن عوامل السماء فيها قوة ، فيها القامة
البشرية قامت على الرجلين ، وحصصتهما للمشي ، وورعت
بذلك اليدين لمراولة أعمال ذات صلة بالعقل أكبر ، وكذلك
استطاعت أن تدير رأسها ، سهولة ، ويسر ، على ما حوفا ،
وما فوقها ، ترى الشمس والقمر والجوهر ، وأن تمشي سوية ،
تهتدي في مسالك الأرض ، وفي طرائق السماء « أفمن يمشي مكبا
على وجهه أهدى ، أم من يمشي سويا على سراط مستقيم ؟ » •

وآدم ، في الوجود ، مسارع بين الملائكة من أعلى ، والأبالسة
من أسفل ، فهو بروح الوجود كله ، وهو في ذلك عقل الوجود
أيضا ، واقفه تبارك وتعالى يسميه حين قال ، جل من قائل « مرج
الحرين يلتقيان » بينهما برزخ ، لا يعيان « والبحران هما
بحر الأرواح العلوية ، التي أشرقت بالطاعة ، وبحر الأرواح
السفلية ، التي اكتملت بالمعصية .

وعقل آدم ، في آدم ، متنازع بين « إرادة الحياة » وهي
النفس ، من أسفل ، و « إرادة الحرية » ، وهي الروح ، من
أعلى ، وهو أيضا برزخ ، والله تعالى يعنيه ، في الآيتين الكريمتين
السافتين ، وهو معاهما الباطل ، وآدم معناهما الظاهر •

والنفس قانونها ابتغاء اللذة بكل سبيل ، واجتناب الألم
بكل سبيل أيضا • ولذلك فهي تطيع الأمر التكويني ، وتثقل عليها

طاعة الأمر التشرعى ، لأنه يضع لها الحدود ، وهى فى ذلك أشبهت
ابليس .

والروح قانونها الحرام والحلال ، وهى تبتنى من النفس
أن تستعصم عن اللذة العاجلة اذا كانت حراما ، وذلك ابتغاء
اللذة الآجلة الحلال ، وفرارا من الألم المترتب على تماطى اللذة
الحرام ، سواء كان هذا الألم معجلا أو مؤجلا . ولذلك فهى
ترتفع من طاعة الأمر التكوينى ، الى طاعة الأمر التشرعى . وهى
فى ذلك أشبهت الملائكة .

وآدم ، فى هذه المرحلة البدائية من تطوره ، قيل له كل
من هذا ، ولا تأكل من هذا . . أى قيل له هذا حرام وهذا حلال ،
فإن هو قوى على مراعاة النفس ، وعصا أمرها بالسوء ، واحتسب
الحرام ، فقد أحسن التصرف فى حريته ، واستحق أن يزداد له
فيها ، والله تعالى يقول « هل جراء الاحسان الا الاحسان ؟ »
وحزاء الاحسان مصاعف ، وذلك محض فصل . اسمعه يقول ،
« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا
يجزى الا مثله ، وهم لا يظلمون »

وقد تضاعف اضعافا كثيرة ، وقد تضاعف بغير حساب . .
اسمعه تبارك وتعالى يقول « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل
الله كمثل حبة ابت سبع سابل ، فى كل سبلة مائة حبة ،
والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » فهنا الحبة اُبت
سبع سابل ، فى كل سبلة مائة حبة ، فذلك سعمائة ضعف ، ثم

قال ، فوق ذلك ، « والله يضاعف لمن يشاء » كان يكون سبعة
آلاف ضعف ، أو سبعين ألف ضعف ، فإذا قال « والله واسع
عليهم » فقد خرج عن العدد ، إلى السعة المطلقة .

وأن هو لم يقو على مراعتها ، وصعب أمام اغرائها ، واسترسل
في تحصيل شهوتها الحرام ، فقد أساء التصرف في حريته ، وعرضها
، من ثم ، للمصادرة ، « فأن كان سوء تصرفه هذا فيه اعتداء على حق
من حقوق الجماعة ، صودرت حريته وفق قانون المساواة في
الشريعة ، وآيته من كتاب الله قوله تبارك وتعالى : « وكفنا
عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والألف بالآلف ،
والأذن بالأذن ، والس بالسن ، والحروح قصاص » فمن تصدق
به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »
وأن كان سوء تصرفه انما يقع وباله على نفسه وحدها ، دون
غيرها من الأنفس ، صودرت حريته وفق قانون المساواة في
الحقيقة ، وآياته من كتاب الله قوله تبارك وتعالى « من يعمل مثقال
ذرة خيرا يره ^١ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . هذا ولا يظن
أحد أن قانون المساواة في الشريعة ، دائما ، كان في هذا
الأحكام الذي وردت به التوراة ، ثم أقره الأنجيل من بعدها ، ثم
جاء القرآن بتأييده وإقراره . ذلك بأنه قانون يتطور مع تطور
المجتمع البشرى ، ويتأثر بمستوى دقة العقل البشرى
ومقدرته على مضاهاة قانون الحقيقة الذي هو أصله ، والذي
كان ، ولا يزال ، في متهى الأحكام ، وهو لم ينادر صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها .

والدقة التي هي حظ قانون المعاوضة في الحقيقة ، والتي فأت كثير من صورها على قانون المعاوضة في الشريعة ، تجد صحتها في أن القانونيين يملأون بها في مصادرة حرية من عجز عن الوفاء بحق الحرية ، من غير أن تكون هناك عقوبات على حقيقة واحدة . وفي مستوى واحد من مستويات العقاب . وأقرب قوانين المعاوضة في الشريعة دقة من قوانين المعاوضة في الحقيقة الحدود ، وهي أربعة . . الزنا والهدف والسرقة وقطع الطريق . . وترجع إلى أصول هما حفظ العرض ، وحفظ المال ، وهما أول قانونين نشأ في المجتمع البشري البدائي ، واليهما يرجع الفصل في جعل المجتمع مكملاً . ويلتزم هذه الحدود حد السكر ، ثم نجى . قوانين القصاص الأخرى في النفس بالنفس ، والعين بالعين . ومعاوضة فعل الشر إما تكون بوضع الألم في مقابلة اللذة من النفس ، والمراد من ذلك وزن قواها حتى تمتدل ، ولا تحيف ، فتتألك على اللذة بغير كتاب منير .

كيف غفر لآدم ؟

الجواب غفر له بإعطائه حق الخطأ . وهذا يعني أن حرته لم تصادر مصادرة أبدية فيقام عليه وصي إلى نهاية ذلك الأبد ، كما فعل إبليس ، وإنما أخذ له في استردادها ، وبدأ بممارسة ما يطبق منها ، فهو يعمل في ذلك بين الخطأ والصواب ، فكلما

أحسن التصرف في الحرية التي لديه أوتي مزيدا منها ، وإن بدرت
 منه اساءة في التصرف تحمل نتيجة سوء تصرفه بعقوبة معاوضة ،
 ومقابلة للخطيئة ، يراد بها إلى شحد قوى نفسه ، حتى تأهل ،
 أكثر من ذي قبل ، لتحمل وإيجاب الحرية في ذلك المستوى الذي
 بدر منها العجز عنه . ثم إن هذه العقوبة يحل فيها اللطف لألهي
 كما يليق به ، فهو يجازي بالحسنه عشر أمثالها ، وقد يصاعفها حتى
 تخرج عن الحصر ، وهو لا يجازي بالسئنة الا مثله ، وقد
 ينفو عنها ، وقد يبذلها حسنة ، وقد يصاعفها ، بمد ذلك أصعافا
 لا حد لها ، فهو تبارك وتمالي يقول « والذين لا يدعون مع الله
 الها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا باحق ، ولا
 يربون ، ومن يعمل ذلك يلق آثاما ، يصاعف له العذاب ، يوم
 القيامة ، ويحد فيه مهانا » الامن قاب ، وآمن ، وعمل عملا
 صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله
 عفورا رحيفا » ولقد ألهم آدم كلمات قتلهمها ، فكانت سببا إلى
 التوبة ، فالمغفرة ، « فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه ، انه
 هو التواب الرحيم » ولقد كانت تلك الكلمات هي « ربنا فلعننا
 أنفسنا ، وإن لم تنفسر لنا ، وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين »
 هذه هي المغفرة لآدم بعد أن أصبح بشرا عاقلا ، ولقد
 أفق آدم دهرا ذهبيا قل أن يبلغ هذه المرتبة الرفيعة . قال
 تعالى في ذلك ، « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن

شيئا مذكورا ❀ انا خلقنا الانسان من نقطة أمشاج نباتيه ، فجعلناه سميا بصيرا ❀ اما هديناه السبيل ، اما شاكرا وأما كهورا « يعنى قد أتى على آدم عهد سحق ، لم يكن فيه مكلفا ، ولا مسئولا ، لأنه لم يبلغ مبلغ العقل ، ولقد تحدثنا عن هذا آتفا ، وقلنا ان الله سير الحياة ، من لدن ظهورها بين الماء والطين ، والى ان بلغت مبلغ العقل ، تسيرا شبه مباشر ، وقانونها يومئذ هو قانون المماوحة فى العتيقة ، وآياته من كتاب الله ، كما سبق بذلك التقرير ، هما الآيتان الكريمتان « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ❀ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهو قانون يعمل دائما على تنمية الخير ، ومحو الشر ،، وذلك بسوق الحياة الى كف الله الرحيم .

هذا التفسير فى مسراقى القرب هو المعفرة لآدم ، من لدن النقطة الامشاج ، والى ان اصبح شرا مكلفا ، فماذا كان آدم قبل هذا ؟ وكيف عمر له ؟ اسمع « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ❀ ثم جعلناه نقطة فى قرار مكين » فقل أن يصح آدم نقطة مخططة بالطين - نقطة أمشاج - قد كان ذرة من سائر الماء ، الذى هو أصل الحياة ، كما يحبرنا تبارك وتعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شئ حى ، أفلا يؤمنون؟ » وهذه الذرة هى أصل سلالة الطين . وانما غفر له فى هذه المرحلة بهذا التفسير

المباشر ، بالقهر الارادى ، الذى حفر الحياة الى ابد وازعجها الى
قرنه ، فارقت المراقى ، وبلغت المبالغ . وقانون هذه الارادة
الالهية . هو قانون المعاوضة فى الحقيقة ايضا .

وهذه المفكرة لادم فى مستوياتها المختلفة هى بعينها
التسير ، فالتناس ميسرون من مرتبة العاصر الى مرتبة الحياة
ومن مرتبة الحياة البدائية الى مرتبة الحياة المتقدمة الراقية
المعقدة ، ومن هذه الى مرتبة الحرية الجماعية بدخول العقل
فى المسرح ، ومن مرتبة الحرية الجماعية ، الى مرتبة الحرية
الفردية المطلقة ، والتسير يطرد فى هذه الى غير نهاية ، لأنه سير
الى الله فى اطلاقه .

التسير خير مطلق

يسهل العقل فى المسرح شأ قانون المعاوضة فى الشرعية، وهو
قانون فحج ، اذا ما قيس الى قانون المعاوضة فى الحقيقة ،
ولكنه يدق ، ويضبط ، كلما قوى العقل واستبعد . وهو
القانون الحادث ، ويعكس الارادة الشرية ، المحدثه . وهو
انما يستهدف اتمام الانطباق على القانون القديم ، الذى
يعكس الارادة الالهية القديمة . . وهيات !!

والانسان مسير من البعد الى القرب ، ومن الجهل الى
المعرفة ، ومن التمدد الى الجمعية ، ومن الشر الى الخير ، ومن

المحدود إلى المطلق، ومن القيد إلى الحرية .

والتسيير ، من بدايته ، هو رحمة في صورة عدل ، وهو أكبر من العدل — « فالرحمة فوق العدل » — وقد أسلفنا القول في ذلك .

والتسيير حرية ، لأنه يقوم على ممارسة العمل بحرية « مدركه » في مستوى معين ، فإذا أحسن التصرف انصرف ريد له في حريته ، فارتفع مستواه بالتحرية والمرأة ، وإن لم يحسن التصرف بحمل مسئوليته ما يوجب حكيماً يستهدف زيادة مقدراته على حسن التصرف ، وهكذا ، فكأن الإنسان مسير من التسيير إلى التخيير ، لأن الإنسان محير فيما يحسن التصرف فيه ، مسير فيما لا يحسن التصرف فيه ، من مستويات الفكر ، والقول ، والعمل .

هاك حديث قدسي جرى من الله تعالى لبيبه داوود : « يا داوود ! إنك تريد ، وأريد ، وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفيك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد » ولقد مرر الأمر من الوهلة الأولى حين قال ، في صدر الحديث ، « وإنما يكون ما أريد ، » عدل بذلك على أن إرادة الله هي النافذة .

وحيث قال « فإن سلمت لما أريد كفيك ما تريد » دل على أن إرادة الإنسان تكون نافذة المفعول إن هو أراد الله . فإن

قلت فهل هو يملك أن يريد الله ؟ قلنا هو لا يملك من تلك الإرادة
 إلا ما ملكه الله تعالى إياه ، « انه سبحانه وتعالى يقول » ولا
 يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » وهو يشاء لنا في كل لحظة
 أن نحيط بشيء من علمه ، وإلى ذلك الإشارة بقوله « كل يوم هو
 في شأن » وشأنه هو أداء ذاته لحظة ليمرفوه ، وليس يومه أربعا
 وعشرين ساعة ، وإنما يومه وحدة رمية التحلي ، وقد تنقسم فيه
 الثانية إلى جزء من بليون جزء ، حتى ليكاد الرمس أن يخرج
 عن الزمن ، كل ذلك وفق ما أودع الله في الكون من قابلية
 التلقى ، ولما كان العهد على قابلية التلقى لا يحصم إلا لحكمة المطلق ،
 فهو قيد في حرية ، وصيق في سعة ، ومن أجل هذه الرحمة المطلقة
 فانا أصبحنا نشعر بأننا بملك إرادة حرة . وهذا الشعور أوجب
 علينا أن نحسن التصرف في حرية إرادتنا هذه . وحسن التصرف في
 حرية الإرادة إنما يكون بأن يريد الله ، ولا يريد سواه ، فإن نحن
 قلنا بذلك عن يقين مكتمل . . فكرا ، وقولا ، وعسلا ، فإنه
 يمدنا بمزيد من حرية الإرادة ، وإن نحن أسأنا التصرف في حرية
 الإرادة ، فأردنا سواه ، صادد حريشا بما يعلمنا كيف نحسن
 التصرف في مستأنف أمرنا ، وحسن تصرفنا منه منه ، وسوء
 تصرفنا منه حكمة ، وهدف الحكمة أن يستمد المكان لتلقى
 المنة ، وكل أولئك إنما يجبري في لطف تأت ، لا يترعج معه لنا
 خاطر ، ولا يمضى معه لنا وجود .

ونحن لا نختار أنفسنا عن الله إلا لجهلنا ، وليس الجهل

ضربة لازب علينا ، وانما نحن نخرج عنه الى العلم كل لحظة .
 فان قلب فلان لم يخلق علماء ، فنكفى بذلك شر الجهل ، وسوء
 التصرف في الحرية ، وما يرتب على سوء التصرف من عقوبة ؟
 قلنا ان العقوبة هي ثمن الحرية ، لأن الحرية مسئولية ،
 والمسئولية التام شخصي في تحمل نتيجة العمل ، بين الخطأ
 والصواب . ولقد خلق الله خلقا علماء لا يخطئون ، ولكنهم ليسوا
 أحرارا ، ولقد نتج عن عدم حريتهم قصص كمالهم ... أولئك هم
 الملائكة ، فان الله فضل عليهم البشر ، وذلك لمكان حظهم
 وصوابهم ، أو قل لمكان ملاقتهم على التعلم بعد جهل ، والى ذلك
 الإشارة بحديث المعصوم « اذ لم تخطئوا وتستعصروا فسيأت
 الله قوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » فكان الخطئين
 المستغفرين هم موضع نظر الله من الوجود ، لأنهم بذلك
 سيصرون الى الحرية ، والحرية المطلقة ، وهي حظ الله العظيم ..
 وكل مقيد مصيره الى الحرية ، والحرية المطلقة في ذلك . وكل
 جاهل مصيره الى العلم ، والعلم المطلق في ذلك أيضا . والله
 تبارك وتعالى يقول « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك
 كدحا فملاقيه » ويقول « أمحببتم انما خلقناكم عتيا ، وانكم اليها
 لا ترجعون ؟ » وملاقة الله ، والرجوع اليه ، لا يكون بقطع
 المسافات ، وانما يكون بتقريب الصفات ، من الصفات . ومن
 أجل ذلك قررنا ان التيسير خير مطلق ، وهو في حقيقة أمره خير ،
 في الحال ، وخير ، في المآل ..

وسيجي وقت ينتهي فيه الجهل بفضل الله في التسير ،
والى ذلك أشار المعصوم حين قال « لو توكلتم على الله حق
توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، ولعلمت العلم الذي لا جهل
بعده ، وما علم ذلك أحد !! قالوا ولا أنت ؟ قال ولا أنا !! » قالوا
ما كما نظن الأبياء تقصر عن شيء !! قال « ان الله أحل
وأعظم من أن يال ما عنده أحد !! » وكلما قل الجهل ، وزاد
العلم ، قل الشر ، ورفعت العقوبة ، عن المعاقين ، في تلك المنطقة التي
وقعت تحت علمهم .

فالعقاب ليس أصلا في الدين ، وإنما هو لازمة مرحلية ،
تصحب النشأة القاصرة ، وتحفزها في مراقى التقدم ، حتى تتعلم
ما يغنيها عن الحاجة الى العقاب ، فيوضع عنها أصره ، وتبرز نفس
الى مقام عزها .

وما من نفس الا خارجة من العذاب في النار ، وداخلة
الجنة ، حين تستوفي كتابها في النار ، وقد يطول هذا الكتاب ،
وقد يقصر ، حسب حاجة كل نفس الى التجربة ، ولكن ، لكل قدر
أجل ، وكل أجل الى قتاد .

والخطأ ، كل الخطأ ، ظن من ظن أن العقاب في النار لا
ينتهي إطلاقا ، فجعل بذلك الشرا أصلا من أصول الوجود ، وما
هو بذلك . وحين يصبح العقاب سرمديا يصبح انتقام نفس

حافدة ، لا مكان فيها للحكمة ، وعن ذلك تعالى الله علوا كبيرا .

القضاء والقدر

هناك ما يسمى سر القدر، وهو الطرف الرفيع من القضاء ،
ولقد وردت الإشارة إليه في قوله تعالى « انا كل شيء حلفاء بقدر
* وما أمرنا الا واحده كلمح بالبصر » فالقضاء هو هذا الأمر
الواحد الذي خرج عن الزمان والمكان ، كما تفيد عبارة « كلمح
البصر » والقدر هو تنفيذ القضاء ، وإبراره في حيز الزمان
والمكان ، على مكث ، وتلبث ، وتطور .

والقضاء والقدر وردت الإشارة إليهما أيضا في آية
أخرى ، وهي قوله تعالى « يحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنده أم
الكتاب » فعوله تعالى « يحو الله ما يشاء ، ويثبت » إشارة
إلى القدر ، وهي في ذلك إشارة إلى التطور ، تتعاقب صور
الكائنات ، بعد أسلفنا الإشارة إلى أن الحياة تقلب في الصور ،
بناء أن تكون ثابتة في الصور كما هي ثابتة في الجوهر ،
وهيات ١١ . . وقوله « وعنده أم الكتاب » يعني القضاء ، يسمى
سر القدر .

واليهما أيضا الإشارة بقوله تعالى « وان من شيء الا عندنا
خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم » فقوله « وما ننزله الا بقدر
معلوم » تسمى القدر ، وقوله « وان من شيء الا عندنا خزائنه » تعني

القضاء ، تعنى سر القدر أيضا .

فالقدر منظمة ثنائية ، حيث الخير والشر ، والعلم والجهل ، ولكن القضاء منظمة وحدة ، حيث يحتفى الشر ، ولا يبقى إلا الخير المطلق ، عند الله ، حيث لا عدو وهذا ما يسمى عند أصحابا سر القدر ، وهو أمر لم يكن عندهم ما يصح ابوسجبه ، وذلك مراعاة لحكم الوقت ، وتأديبا بأدبه .

وهناك ساجتان لكل مخلوق : سابقة في القضاء ، وسابقة في القدر . . فأما السابقة في القضاء فهي خير مطلق لكل الحلائق ، وأما السابقة في القدر فهي أما خير ، وأما شر ، وأمرها معطى على الناس ، وقد تدل ، على هذه السابقة ، اللاحقة ، وهي ما يكون عليه الانسان في حياته اليومية من صلاح أو طلاح ، وأمر اللاحقة غير معطى على أصحاب البصائر ، الذين يعرفون عيوب العمل بالشرية ، وارسال الله الرسل ، لكشف اللاحقة ، بتفصيل الشريعة ، وتنطيطه تعالى السابقة في سر لوحه المحفوظ ، أرم عباده الحجة ، وأوجب عليهم العمل بأوامر الشريعة ، ونواهيها ، « لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولقد قال ، جل

من قائل ، في ذلك « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يحرصون » . . ما لهم بشيئة الرحمن من علم ، لأنها مقطوعة عنهم ، وانما لهم علم بشريعة الرحمن ، وقد أمرتهم ألا يعبدوا الا اياه ، وقوله « ان هم الا

يخربون ، نمنى ألا يكذبون ، وذلك لأنهم لا يردون الأمور كلها لله ، في أمور معاشهم ، وفي كسب أرزاقهم ، وما ردها إليه في أمر عبادتهم إلا لفلة يقيمهم بالآخرة ، إذا ما قيس إلى الدنيا .

وحين تطلع الشمس على سر القدر ، وتستيقن أن الله خير محض ، تسكن إليه ، وترضى به ، وتستسلم وتتقاد ، فتحرر عندئذ من الخوف ، وتحقق السلام مع نفسها ، ومع الأحياء والأشياء ، وتقى حاطرها من الشر ، وتمصم لسانها من الهجر ، وتقضى يدها عن القتل . ثم هي لا تلبث أن تحرر وحدة ذاتها ، فتصير خيرا محضا ، تنشر حلاوة السمائل في غير تكلف ، كما يتضوع الشذا من الزهرة بالمطار .

هنا يجرد القلب ، وإلى الأبد ، بوصيد أول منازل العبودية . فيومئذ لا يكون العبد مسيرا ، وإنما هو محير . ذلك بأن التسيير قد بلغ به منازل التشريف ، فأسلمه إلى حرية الاختيار ، فهو قد أطاع الله حتى أطاعه الله ، معاوضة لفعله .. فيكون حيا حياة الله ، وعالمًا علم الله ، ومريدًا إرادة الله ، وقادرا قدرة الله ، ويكون الله .

وليس لله تعالى صورة فيكونها ، ولا نهاية يبلغها ، وإنما يصبح حظه من ذلك أن يكون مستمر التكوين ، وذلك بتحديد حياة شعوره وحياة فكره ، في كل لحظة ، تخلقًا بقوله تعالى عن

نفسه ، « كل يوم هو في شأن » وإلى ذلك تهدف العبادة ، وقد أوجزها المعصوم في وصيته حين قال « تحلقوا بأخلاق الله ، ان ربي على سراط مستقيم » وقد قال تعالى « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون » .

وفي حق هؤلاء قال تعالى « لهم ما يشاءون عند ربهم » ، ذلك حزاء المحسنين « فقول له تعالى « لهم ما يشاءون » يعنى هم معيرون وقوله (عند ربهم) يعنى مقام العبودية ، لأنه لا يكون عند الرب الا العبد ، وقوله « ذلك حزاء المحسنين » يعنى بالمحسنين من أحسوا التصرف في الحرية الفردية المطلقة ، وذلك باستعمالها في تحقيق العبودية لله ، فانه تعالى قد قال « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

هنا منطقة فرديات ، الشرائع فيها شرائع فردية ، والداعية فيها ، الى الله ، الله نفسه .. يقوم فيها العبد في مواجهة الرب ، وقد سقطت من بينهما الوسائط ، ورفعت الحجب - حجب الظلمات وحجب الأنوار - العادة فيها عبودية ، والعمل فيها ملاحظة الساقطة ، وضبط اللاحقة عليها ، حتى يستقيم الوزن بالقسط ، ادمحاولة العبد هنا أن يكون لربه كما هو له ، وهذا معنى أمر الرب سبحانه حين قال « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » فاذا كان حضور العبد مع الرب كحضور الرب مع العبد ، تماما ، فقد أقيم الوزن بالقسط .. وهيهات !!

ولا نأس لها من اسطراد بسيط الى القيمة العملية من العبادة ،
 ذلك بأن قيام العيد في مواجهة الرب ، وقد سقطت من بينهما
 الوسائط ، تعنى اللقاء بين الحادث والقديم ، وقد رفعت من بينهما
 الحجب ، والحادث هنا العقل والقديم القلب ، وهو ما يمر
 عنه ايضا بالعقل الباطل . وهذه الحجب هي حجب الرغبات المكبوتة
 على سطح احسن الباطل ، تعمل الجوف الموروث ، في سحبي
 الامداد . من لدن الشفاء الشرية الأولى ، وهي « الرين » الذي
 وردت الاشارة اليه في قوله تعالى « كلا بل ران على موهبهم ما
 كانوا يكسبون » .

ولا يمكن أن يلزم الفرد الحرية الفردية المطلقة وهو مقسم
 على نفسه ، ونعنه حرب على بعض . بل لا بد له من اعادة
 اوحده الى بيته ، حتى يكون في سلام مع نفسه ، قبل أن يحاول
 أن يكون في سلام مع الآخرين ، فأن فاقد الشيء لا يعطيه . وهو
 ان يكون في سلام مع نفسه حين لا يكون العقل البواعي في
 تضاد ، وتعرض مع العقل الباطل ، ويومئذ تتحقق سلامة القلب ،
 وصفاء الفكر . وبمسارة أخرى ، تتحقق حياة الفكر ، وحياة
 الشعور ، وتلك هي الحياة الملهمة . وتوحد القوى المودعة في
 البنية اما يتم بأن يفكر الانسان كما يريد ، ويقول كما يفكر ،
 ويعمل كما يقول ، وهذا هو مطلب القرآن البنا حسيما ، حين
 قال ، عز من قائل ، « يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا

تفعلون ؟ ❦ كبير مقصداً الله أن تقولوا ما لا تفعلون .
 وأما بعض التعارض القائم ، بين العقل الواعي والفعل
 الباطن عن طريق فهم التعارض القائم بين الفرد والجماعة ، وبين
 الفرد والكون وقد يبا فصل الإسلام في ذلك ، وهكذا يصح
 أن ضرورة فهم علاقة الفرد بالجماعة ، والفرد بالكون ، هما
 دافعاً أساسياً تجيء من الحاجة العملية إلى المهاج الذي به يتم
 تحقيق الحرية الفردية المطلقة ، ولا يتم بمهاج سواء .

بني شيء . . . وهو أن هالك خطأ يورط فيه كثير من المفكرين ،
 وذلك حين يظنون أن القول بالتفكير فيه سلبية ، ولحق غير
 ذلك . . . ذلك لأن إعطيه ما سعى به القدر ، وكشف ما جاءت به
 الشرية ، قد أوجبا على الإنسان العمل بأوامر الشرية ، وبواهياها ،
 جهد الاتقان ، والاحسان ، ثم الرضا بعد ذلك بما عسى أن يكون
 مكتوباً عند الله ومقدراً ، وذلك توكلأ عليه ، وثقة به . . . وقد
 قال المصوم « أن الله كبر الاحسان على كل شيء » ، « إذا
 قتلتم فاحسنوا القتل » ، « وإذا دحتم فأحسنوا الذبح » . وليحدث
 أحدكم شفرته ، وليرح ديبخته . « بل أنى لا أعلم إيجابية تبلى
 إيجابية من يعمل الواجب المباشر جهد الاتقان « لأن الله قد كتب
 الاحسان على كل شيء » ثم يرمى بالنتيجة مهما كانت من
 غير أن تذهب نفسه حشرات عند الحية ، أو يتحجج الفرح عند
 النجاح ، والله تبارك وتعالى يربا ، في ذلك يؤدبنا ، بقواه

جل من قائل « ما أصاب من مصيبة ، في الأرض ، ولا في
أنفسكم ، الا في كتاب من قبل أن يراها ، ان ذلك على الله
يسر * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ،
والله لا يحب كل مختال فخور »

الخلاصة

وحلاصة الأمر في علاقة الفرد بالكون هي أن موضعه منه
ليس موضع اللدد والخصومة ، ولا موضع المناجزة والمصاولة
التي لا تهدأ حتى تبدأ من جديد ، في صعيد جديد .
ان الانسان هو ثمرة الكون ، وصفوته ، وهو فيه ملك في
ملكته ، مكانه مها مكان السيادة الحكيمة ، والادارة
القديرة والعدل الموزون . وقد تأذن رب الكون أن يجعل
الانسان خليفة عليه ، فهو بعده لهذه الخلافة بالثرية والتعليم
والارشاد الحكيم . وقد خُل الجهل للانسان انه مقصود
بالعداوة ، في غير رحمة ولا هوادة ، فأصبح يحارب في غير محترى ،
ويعادى في غير موجب للعداوة ، وهو لن يبلغ مبلغ
الخلافة الا اذا شب عن العداوات ، وعلم أنه أكبر من أن يعادى ،
ولم يصح في قلبه مكان الا للمحبة .. فان الله يحب
جميع الخلائق .. غارها ، وسائلها ، وحجرها ، ومدرها ،
ونباتها ، وحيواناتها ، واناسها ، وملكها ، وابليسها .. فانه تبارك
وتعالى انما خلق الخلائق بالارادة .. والارادة « ربة » وهي
المحبة .. ولن يكون الانسان خليفة الله على خلقه الا اذا

اتسع قلبه للحب المطلق لكل صورها وألوانها ، وكان تصرفه فيها تصرف الحكيم ، الذي يصلح ولا يفسد ولا يموق الحب في القلوب مثل الخوف . فالخوف هو الأب الشرعي لكل الآفات التي ايف بها السلوك البشري في جميع عصور التاريخ . . ولا يصلح الانسان للخلامة على الأرض ، ولا للتصرف السليم في مملكته وهو خائف . . وليس هالك أسلوب ، ولا نهج لتربية يحرره من الخوف غير الاسلام . . فان بالاسلام يتم سلام الانسان مع نفسه ، ومع ربه ، ومع جميع الأحياء ، والأشياء . . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين) السلم يعنى الاسلام ، ويعنى السلام . . وهما معنى واحد (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فيفرى بينكم العداوة ، والبغضاء . . والاشارة الى العداوة وردت في قوله تعالى (انه لكم عدو مبين) . .

الباب الرابع

الاسلام

لقد تحدثنا عن الفرد والجماعة في التفكير الفلسفي ، وعن الفرد والكون في التفكير الفلسفي أيضا ، وأعقبنا ذلك بالحديث عن الفرد والجماعة في الاسلام ، والفرد والكون في الاسلام ، سمح في الاسلام من الحلول ما أعيانا ابتعاؤه في الفلسفة ، وقد أظهرنا الله من ذلك بما نريد . فوجب أن نعترف الأرض التي وقف عليها !!

فما هو الاسلام ؟

أسلم : أقنعت واستسلم . والاسلام ، في الحقيقة ، الاقناعات والاستسلام . ونعني بالحقيقة ما فطر عليه الأشياء . والله تبارك وتعالى يسمي هذا حيي قال : « أفغير دين الله يبعثون ، وله أسلم من في السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون ؟ » والدين يسميها الشأن ، والسيرة ، والسنة . ودين الله يعني سنة الله في خلقه ، وهي ما فطر عليه الأشياء . ولقد فطرت الأشياء منقادا لله ، « وله أسلم من في السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون » والاسلام ، بهذا المعنى ، هو دين الخلائق جميعها ، في البداية ، وفي النهاية ، وفيما بين البداية والنهاية . ولا يستثنى من ذلك الانسان . بيد أن الرحمة الالهية لم ترض للخلائق

الانقياد بعير ارادة ، هبت ، بدقائق لطفها ، لطيبتها ، وهو
الاسان ، ان يتوهم انه يخلف عن بية المخلوقات ، وهذا الوهم
هو مصدر شقائه في الحال ، وهو مصدر سعاده في المال ، واما
دخل عليه هذا الوهم بما ادخل الله عليه من ارادة الحرية ، والى
ذلك الاشارة بقوله تعالى : « افاعرضا الامانة على السموات ،
والارض ، والجبال ، فأبين أن يحملها ، وأشفقن منها ، وحملها
الاسان ، انه كان ظلوما جهولا » و « كان ظلوما جهولا » مدح
في قالب دم . فانه من أجل حمل هذه الامانة جاءت الكرامة لنى
الاسان ، والله تبارك وتعالى يقول « ولقد كرمتا بى آدم ،
وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفصلناهم
على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وعن توهم الانسان الشدو عن قية الخلائق يحدثنا ، تبارك
وتعالى ، فيقول « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن
في الارض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر
والنواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن
يمن الله فما له من مكرم ، ان الله يفعل ما يشاء ؟ » ولكلمة
(يسجد) معان كثيرة ، منها مطاوعة القهر الارادى . وهذه
المطاوعة جارية من الانسان ، كما هي جارية من العناصر
الصماء . ومنها سجد العباد ، وهو ما عناه حين قال « وكثير
من الناس » . فان هؤلاء سجدوا سجد الاحساد في محاربه

العبادة ، الأمر الذى لم يقع من بعض الناس ، وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى « وكثير حق عليه العذاب » . فاستحقاق العذاب ليس لأنهم لم يسجدوا وسجد القهر الإرادى ، فأنهم قد سجدوا هذا ، ولكنه لم يقبل منهم ، وإنما أريد منهم سجود العبادة ، فلم يفعلوه ، فحق عليهم العذاب . وسها سجود العبودية ، وهو ما لم يحصل من أحد ، على تمامه ، ولن يحصل . ذلك بأن العبودية ، كالربوبية ، لا تنهى ، ولكن طلائع البشرية ، من أنبياء الحقيقة ، حققوا منه حظوظا متفاوتة . ويكون سجود العبودية لم يتم لأحد ، ولن يتم ، أما يلتمس تقريره في صدر الآية التالية ، حيث يقول تعالى « هذان خصمان اختصموا في ربهم » فأما تصح في حق كل عابد ، وهى إشارة إلى اقسام الشخصية الشرية ، إلى ظاهر ، وباطن ، وهى لى تنك مقسمة ، لأن الثنائية حفظها ، ولا تتم العبودية الا لوتر ، وهيات ١١ وسجود العبادة وسيلة إلى سجود العبودية ، اذ به يرفع عن الانسان الوهم ، فيخرج من سجنه إلى سراحه ، ومن جهله إلى علمه ، ومن شقائه إلى سعادته . وذلك حين يسجد سجود المطاوعة للقهر الإرادى ، ولكن عن وعى ، وفهم ، وإدراك به يختلف عن العناصر الصماء ، وإلى هذا السجود الرقيق الإشارة اللطيفة في قوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خبيلا ١ » والإشارة اللطيفة هنا هى عبارة « وهو محسن » فأنها سر هذه الآية ، وهى

أيضا سر الآية الأخرى التي تقول « ومن يسلم وجهه الى الله ، وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور » وانما كانت عبارة « وهو محسن » سر الآيتين لأن جميع العناصر الصماء مسلمة وجهها لله ولكنها غير محسنة - غير واعية ولا مدركة - فلا عبرة بإسلامها ، لأنها مسلمة في منطقة الإرادة ، ولم تلبس أن تكون مسلمة في منطقة الرضا ، فذلك حظ الشر وحدهم ، وهو ما من أجله أرسل الله الرسل ، وقد سبقت الى ذلك الإشارة .

والاسلام بهذا المعنى دين البشرية ، وغرضه مجازاة الوهم البشري ، الذي أوحى به إرادة الحرية ، حتى يتم الخروج عنه ، على مكث ، وحكمة مشيئة ، تكون ثمرتها الاسلام الواعي . والاسلام الذي هو دين البشرية ظهر بظهور العقل ، وظل يواكب نمو العقل في تطوره الطويل ، من بداية ساذجة ضعيفة الى نهاية حكيمة مستحصنة .

والاسلام الذي هو دين البشرية ، هو نفسه الاسلام الذي هو دين الله ، في الآية التي سلف ذكرها ، وهي قوله تعالى ، « أقمير دين الله ينون وله أسلم من في السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون » وعن الاسلام الذي هو دين البشرية وردت الآية « ومن يتنغم خبر الاسلام ديننا فليقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » وقوله « وهو في »

الآخرة من الحاسرين » يعنى أن محاولاته كلها تفشل ، فيرد في آخرتها الى الاستسلام بمد أن تعينه الحيلة . وفي نفس المعنى وردت الآية « ان الدين عند الله الاسلام » ، وما اختلف الدين أو بوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم ، بما بينهم ، ومن كفر بآيات الله فان الله مريع الحجاب « فبوه « عند » ليس للزمان ، ولا المكان ، لأن الله لا يحويه الزمان ولا المكان ، وأما هى لنهاى الكمال . فالاسلام الذى هو دين ابشره ، فى قته ، سير مصافا للاسلام الذى هو دين العاصر ، ويطلب بأنبياء كاشادها ، مع نوعى وتنام الادراك لهذا الاقياده وهيهات !!

قوله « وما اختلف الدين أو بوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم انعام » يعنى ما اختلفوا الا فى الشرائع ، هذا معنى من حياه معدن ، وهو يستقيم مع كون الدين فى أصله واحدا ، والشرائع مائة . قال تعالى « كان الناس أمة واحدة ، سمعت الله البين مشرين ومذرين ، وازل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » كانوا أمة واحدة على الجهل البدائى ، « وازل معهم الكتاب » تعنى « لا اله الا الله » ، والشرائع المناسبة ، لجماعتهم ، ولما دت بهم ، وعدنظ ظهر الخلاف ، فحاء قوله تعالى « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ، وفى وحدة الدين يحدثنا القرآن بقول « ولله ما فى السموات

والأرض ولقد وصفا الدين أوتوا الكتاب من قبلكم ، وإياكم ،
 أن آمنوا الله ، وأن تكفروا فإله ما في السموات وما في
 الأرض ، وكان الله عيا حميدا « فوله » ولقد وصينا الدين أوتوا
 الكتاب من قبلكم وإياكم أن آمنوا الله « يعنى أمرناهم ، كما
 أمرناكم ، أن تقولوا « لا إله إلا الله » فإن هذه هى قمة
 التقوى ، وهى « كلمة التقوى » التى عى بقوله تعالى « اد جمل
 الدين كفروا فى قلوبهم الحية ، حية الجاهلية ، فأزل الله
 سكيته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأرهم كلمة التقوى ،
 وكأموأ الحق بها ، وأهلها ، وكان الله بكل شئ عليم » بكلمة
 التقوى هى « لا إله إلا الله » ومن ههنا جاء حديث المعصوم
 « خير ما جئت به أنا والبيون من قلى « لا إله إلا الله » ..

والى وحدة الدين الاشارة بقوله تعالى « شرع لكم من
 الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به
 ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أن آمنوا الدين ، ولا تفرقوا فيه ،
 كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجيب ايه من يشاء ، ويهذى
 ايه من ييب » فوله « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا »
 يعنى بين لكم من الدين ما عرض على نوح وهو أيضا ما عرض
 على آدم ، وهو حين يبه لكم أمامه عليكم ، وهذا لا يعنى
 الشريعة وانما يعنى التوحيد ، الذى عليه تقوم الشريعة ،
 جبريه ووحدة التوحيد ، واختلاف الشرائع ، وشرعه
 قوله « أن أقيموا الدين ، ولا تفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما

تدعوهم اليه » وأما يكبر على المشركين ، وهم الملعونون ، أن يدعوا الى التوحيد . وهو ما يحصل دائما ، وانعكاس التوحيد في التشريع هو الذي يصرح التشريع للمعارضة ، ذلك لأن النفوس لاحظ لها في التوحيد .

الاسلام كدين بدأ ظهوره بظهور الفرد البشري الأول ، وقد تحدثنا عن ذلك في الفصل الذي عمدناه عن علاقة الفرد بالمجتمع وهو ، يحاول في قلبه أن يصادف الارادة الالهية . وقد تحدثنا عن ذلك في الحديث عن الأمر الكويبي والأمر التشريعي ، فهو إذن له بداية ، وليست له نهاية ، لأن حياته عند الله ، « ان الدين عند الله الاسلام »

بدأ ظهور هذه الفكرة الواحدة في الوثنيات البدائية المتفرقة ، ثم أحدثت تقلب في مراقبي التطور حتى ظهرت الوثنيات المتقدمة ، وألترد بها التمدد حتى ظهرت صور ديانات التوحيد الكتابية ، بظهور اليهودية و ظهور الصراية ، ثم توج ذلك ببعث محمد ، وأزال القرآن الكريم . وهذه الفكرة الواحدة ذات شكل هرمي ، قاعدته أحط الوثنيات التعدديات ، وأكثرها تعديدا ، وقلته عند الله ، حيث الوحدة المطلقة ، والاختلاف ، كما هو واضح ، بين القاعدة والقمة اختلاف مقدار ، وليس اختلاف نوع .

وهذه الفكرة الواحدة بنيت في الأرض ، كما بنيت الحياة بين

الماء والطين ، وظلت متجاذبة بين أسباب السماء وأسباب الأرض ، وكلما ألت بها أسباب السماء رفعت قمتهما الى قمة ، ثم اذا ألت بها أسباب الأرض أحضت قمتهما نظام نحو القاعدة ، حتى تغطى ، فتتسع القاعدة ، وتحيط القمة . واتساع القاعدة هذا . إنما هو استمداد لارتفاع القمة ، الى قمة جديدة ، أعلى من سابقتها ، عند المامة أسباب السماء المتأخرة . والمامة السماء في الأوج نسيها ومن بعثة . والمامة الأرض في الحضيض نسيها ومن فترة . وهكذا ظلت هذه الفكرة الكبيرة تسير في مراقي الاكتمال كما تسير الموجهة من قمة وقاعدة ، وكل قمة أعلى من سابقتها ، وكل قاعدة أوسع من سابقتها ، الى أن النحت الأرض بأسباب السماء ، أو كاد . فاستمر وحى السماء الى الأرض ، بين دعوى المصحف ، على الأرض ، ولكنه لا يزال ينتظر التطبيق .

الثالث الاسلامى

بمجيء موسى و نزول الوصاية على بني اسرائيل دخلت الفكرة الاسلامية في طور جديد، وهو طور ما يسمى بالاديان الكتابية ، وهى اليهودية والنصرانية ، والاسلام - فالنوراء لليهود ، والانجيل للصارى ، والقرآن للمسلمين . وهذا الطور الجديد ، الذى دخلته الفكرة الاسلامية بمبعث موسى ، تميز بالتوسع في التشريع الدنى بصورة لم يبق لها مثيل ، وجميع الشاريع تنبى للرب عن طريق الوحي الملائكى لموسى ،

وقد اتجه الشريعة الدينية ، الموحى به من الرب الواحد ، الى تنظيم
حياته المجتمع ، في كل كبيرة وصغيرة ، وبصورة جماعية
واسعة . ولقد سادت عقيدة التوحيد مع شريعة التنظيم على
هذا المدى الواسع لأول مرة في التاريخ . ثم جاء عيسى
بالإنجيل ، ثم اكمل الثالوث الاسلامي بمبعث خاتم النبيين ،
والقرآن يحدثنا عن ذلك يقول : اما انزلنا البقرة فيها هدى
ونور ، يحكم بها ابيون الدين اسلموا ، للدين هادوا ، والربانيون
والاحبار ، بما استحفطوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ،
فلا تحشوا الناس ، واحشواي ، ولا تنتروا بآياتي ثما قليلا ، ومن
لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴿ وكنا عليهم
فيها أن النمس بالنفس ، والميم بالميم ، والألف بالالف ، والأذن
بالأذن ، والس بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو
كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون
﴿ وفيما على آثارهم نبيي بن مريم ، مصدقا لما بين يديه
من النورة ، وآتيناها الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين
يديه من النورة ، وهدى وموعظة للمتقين ﴿ وليحكم اهل الانجيل
بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون
﴿ وأرسلنا اليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب
ومهيما عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم
عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء
الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا

النجيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فيبينكم بما كنتم فيه
تخلفون » •

ولقد بعث موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وكان
المجمع بدائيا غليظا ، وكان الفرد شكيا ، سيء الخلق ، وكان
قريب عهد يمايون العابة ، فدعه النوراء الى الانصاف - الى
المعاملة بالمثل - انفس بالنفس - والمين بالمين - تكون شريعة ،
ولطفت فرعه ، من سيد ، في العمود - فقال - فيما حكاه
عنها القرآن ، « من تصدق به فهو كفاره له » • من صدق
بالقصاص على الملعدي ، فلم يصح منه ، فان الله يموصه من
فصله عما اصابه • وذلك قول القرآن ، حين قال : « فيها
هدى ونور » فان الهدى الشريعة ، والبرر الاحلال • •
والاحلاق هي الطرف الربيع من الشريعة ، وهي تخرج عن
الزام الشريعة الى تطوع كل فرد على حدة •

وانما طالبت التوراة بالقصاص ، وكادت ان تقتصر
عليه ، لانه اقرب الى طبيعة النفس الشرية ابتدائية ، التي
مردب على الشكاسة ، والاعتداء ، فلا يرجي منها كثير في باب العدل ،
بله العمود • ولقد كان يهو اسرائيل كلما دعوا الى واضحة يكتسوا
عنها • وابهم كفى عصوا وديهم ، وموسى بين ظهرائهم ،
وبصره الله اياهم على عدوهم لا ترال مثله ، حين حوا لعبادة
العجل ، وهذا القرآن يرض علينا من احبارهم « فأتوا على

قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا يا موسى اجعل لنا الهة
 كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون * ان هؤلاء متبرهين
 فيه ، وباطل ما كانوا يعملون * قال أعير الله أنبياءكم الهة وهو
 فصلكم على العالمين ؟ * فسكوا عن غير اقتناع ولا إيمان ، فلما
 ذهب موسى لحيات ربه ، وحلف على قومه هارون آباء ، اتحدوا
 المحل ، وقالوا هذا الهكم . واله موسى ، فقال تعالى عنهم
 في ذلك « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا
 ولا نفعا ؟ » * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قومى إنما
 فسهم به ، ان ربكم الرحمن ، فاتبعونى ، واطيعوا أمرى *
 قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » .

والمشاهد كثيرة في القرآن التي تحدث عن غلظة اليهود ،
 وعن كثافتهم ، وكيف أنهم كلما دعوا إلى رفعة اخلدوا إلى
 الأرض ، وهذا أمر طبيعي في ذلك الطور المتقدم من أطوار
 الإنشاء ، وهم ، على ما كانوا عليه ، قد كانوا صغوة زمانهم . .
 « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على
 العالمين » واما هم آل ابراهيم ، وهم أيضا آل عمران . . « ذرية
 بعضها من بعض » والله سميع عليم »

وبهذا يكن من الأمر ، فقد جاءت تشاريح التوراة في
 طرف البداية ، ولم يتخلص اليهود ، لدى التطبيق ، من
 الوثنيات التي عاصروها في مصر زمانا طويلا ، مما زادها إيظالا في
 الدائبة .

ثم جاء المسيح بشرع يشد الناس الى طرفه الهاية
حتى لكأنه رد فعل ، وهو من عيرتك كذلك . وهذا أمر يدركه
كل عابد مجود ، فأنك في بداية عبادتك تكون تفك صماء ،
لأن روحك يكون مكدره بظلماتها ، فإذا ما احسن بالسيب
العبادة البوية الاحمدية . عصمت صياما صديا لثلاثة أيام
وليلتين ، أو لسبعة أيام وست ليال ، مع موالاة الصلاة ،
وبخاصة صلاة الثلث الاخير من الليل ، فأنك تبدأ تشعر بان
تفك احدث تشد الى الطرف الآخر ، فإذا تابرت على موالاة
هذا النهج الاحمدى لمدة كافية . فأن روحك ، بعد أن كانت
مطوية تحت جناح نفس كثيفة مظلمة ، تنطلق ، في لطف وجهه ،
الى شاطئ الوادى الايسر ، وتظل انت ، كمدول لساعة .
تأرجع بين اقصى الشمال ، واقصى اليمين . ويكون مثلك الاعلى
أن تثبت في الوسط ، وهيئات ! هيئات ! فأن ذلك مقام « ماراع
البصر وما طفى » .

هذا الأمر الذى يجرى للفرد العابد المحرود ، من برور ثابوته ،
هو ما حصل للانانية المجاهدة ، في هذا الامد الطويل ، ببرور
ثابوتها ، من الأديان الثلاثة . اليهودية والسراية والاسلام .
ذلك بان تاريخ التمرد البشرى يحكى تاريخ المجتمع البشرى
يرمته . وهذا هو السر فى ان المسيح جاء بروحانية مفرطة ،
في مقابل مادية مفرطة (الأولى من الافراط والثانية من
التفريط) - وجد عليها اليهود . ولقد قال المسيح لتلاميذه « لا

تظنوا أني جئت لأقسم الناموس، أو الأنبياء... ما جئت لأقصر
 بل لأكمل » وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله من الآيات
 السواء « وقيل عني آثارهم يعني بن مريم ، مصداق لما
 بين يديه من أنشوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ،
 ومصداق لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » فهو
 مصدق لما بين يديه من النوراء . وأنجيله مصدق لما بين يديه من
 التوراء ، فهو لا يقصر ، وإنما يكمل ، كما قال ، ومعنى يكمل
 أنه يطور . ويمدد المعنى ، الذي قصر بها حكم الرمن ، عن بلوغ
 غاياتها ، إلى غاياتها أو تكاد .

أسمه وهو يعلم تلاميذه فيقول « سمعتم أنه قيل عني بعين ،
 وسن بس ، وأما أنا فاقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمتك
 على خدك الأيسر فحول له الآخر أيضا » ولقد بعث المسيح
 في وقت كتاب اللطه الرمييه فيه . على اليهود ، للرومان ،
 وكتاب الشريعة اليهودية مطلقه ، في بعض جوانبها ، من جراء
 ذلك ، فجاءت دعوة المسيح وكأنها ، من الناحية العملية ، لا
 تعنى تنظيم حياة المجتمع ، وإنما تقدم وصايا خلقية ، ومد في
 هذا المظهر كون السيد المسيح لم يمر طويلا ، فإنه لم يلبث في
 الدعوة إلا ثلاث سنوات .

والحق أن تشريع اليهود هو تشريع الصاري ، إلا حيث
 تناوله المسح فانطویر ، ففي هذه الحالة يصحح تشريع

انصارى قد حدد من تشريع اليهود ، بالسكن الوارد عن
المسيح . وهذا الأمر غير مدرك ، وغير معمول به عند انصارى .

« وآتساء الأجيل مـهـدى ونور » وهـدى هـا ايضاً
نعى شريعـه ، ونور تعنى أخلاقـه والأجيل أدخل فى الأخلاق من
التوراة ، ولذلك فإنه قد جعل المعـى شريعته ، وبها جاء أمر
رسوله ، وحين قال المسيح « ستمم أنه قيل عـى بعين ، وس
س » فإنه قد جاء بطرف البداية ، وهو طرف التـريط فى
الروح ، وحين قال « وأما أنا فاقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل
من يظلمك على حدك الأيسر فحول له الآخر ايضاً » قد
جاء بطرف يشبه النهاية ، وهو طرف الأفراط فى الروح .

ثم جاء الإسلام ، على عهد محمد ، بين طرفى الأفراط
والتـريط ، فكانه من « ثلوث الإسلام » مقام « مراع البصر ،
وما طفى » من ثلوث القوى المودعة فى السية البشرية ، قال
تعالى فى هذا « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على
الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » . « أمة وسطاً » بين
الأفراط والتـريط ، و« لتكونوا شهداء على الناس » يعنى لتكون
فيكم كل الصفات التى يلتقى عندها الناس ، وقوله « أهدوا
الصراط المستقيم » صراط الذين أممتهم عليهم ، غير
المضروب عليهم ، ولا الضالين « فالصراط المستقيم هو الوسط
بين الطرفين اللذين يكون فى أحدهما غضب الله ، وهو طرف

التفريط ، وفي ثانيهما الضلال ، وهو طرف الأفرط في الروحانية . ومعنى « الدين أتمت عليهم » المسمون ، وإلى ذلك الإشارة بقوله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ولما كان الإسلام الذي جاء به محمد وسطاً بين اليهودية والنصرانية ، فإن القرآن قد جاء في سياقه بالجمع بين خصائص اليهودية ، وخصائص النصرانية ، وذلك حين يقول ، مثلاً « وجزاء سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأحسره على الله ، انه لا يحب الظالمين » فقوله « جزاء سيئة سيئة مثلها » يقال قول التوراة الذي حكاه المسيح حين قال « عني سمعي وسن بسن » وهو لا يحكيه تماماً ، وإنما فيه تطوير ، يمر من القصاص ، ليهد للعفو ، وذلك بما يسمى عمل المفتص من اعتدى عليه « سيئة » . وقوله « فمن عفا ، وأصلح ، فأحسره على الله ، انه لا يحب الظالمين » يقابل قول الأنجيل ابدي حكاه المسيح حين قال « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيسر محول له الآخر أيضاً » وهو لا يقابله تماماً . فإن قول القرآن أبلغ من عبارة الأنجيل هذه ، في التامع ، والمسيح قوله أخرى تقابل « فمن عفا وأصلح فأحسره على الله » ، وذلك حيث يقول « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم ، أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » .

وكون الاسلام وسطا بين طرفين ، طرف البداية وطرف
 النهاية ، وجامعا لخصائص الطرفين ، جعل الاسلام نفسه
 ذا طرفين : طرف أقرب الى البداية ، وطرف أقرب الى النهاية .. وهذا
 شأن كل وسط بين طرفين ، فهو كالولد الذى يحىء حامما
 لخصائص الوالد ، وخصائص الوالدة ، على نسب قد تتفاوت ،
 ولكنها لا تنعدم .

عانا كان هذا الحديث صحيحا ، وهو صحيح ، بلا
 أدنى ريب ، فإن له أثرا بعيدا فى مستقبل الفكر الإسلامى ،
 ذلك بأنه يبنى أن الاسلام ، كما جاء به القرآن ، ليس رسالة
 واحدة ، وإنما هو رسالتان : رسالة فى طرف البداية ، أو هى
 مما يلى اليهودية ، ورسالة فى طرف النهاية ، أو هى مما يلى
 المسيحية ، وقد بلغ المصنوم كلتا الرسالتين ، بما بلغ القرآن ،
 وبما سار السيرة ، ولكه فصل الرسالة الأولى بشرحه تفصيلا ،
 وأجمل الرسالة الثانية أجمالا ، اللهم إلا ما يكون من أمر التشريع
 المتداخل بين الرسالة الأولى ، والرسالة الثانية ، فإن ذلك يعتبر
 تفصيلا فى حق الرسالة الثانية أيضا ، ومن ذلك ، شكل خاص ،
 تشريع العبادات ، ما خلا الزكاة ذات المقادير .

الباب الخامس

الرسالة الأولى

الرسالة الأولى هي التي وقع في حفاها التبيين بالتشريع وهي رسالة المؤمنين... والمؤمنون غير المسلمين ، وليس الاختلاف بين المؤمن والمسلم اختلاف نوع ، وإنما هو اختلاف مقدار ، فما كل مؤمن مسلم ، ولكن كل مسلم مؤمن .

والإسلام بداية ، وحاية . فكما أن الزمان والمكان لوليان ، فكذلك الأفكار ، فإنها لولية ، يسير الصاعد في مراقبها في طريق لولي ، يرتفع في المراقبي كلما يدور على نفسه ، حتى إذا تمت دورة على نقطة البداية ارتفع السالك مستأوقها ، وجاءت حاية تلك الدورة على صورة تشبه البداية ، ولا تشبهها . فكذلك الشأن ، فإن السالك في مراقبي الإسلام يسير على معراج لوبي ، ينصم نحو مركزه ، كلما ارتفع نحو قمته ، ويدور على نفسه دورة ، كلما رقي سبع درجات ، أولها الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الاحسان ، ثم علم اليقين ، ثم عين اليقين ، ثم حق اليقين ، ثم في نهاية الدورة ، الإسلام .

وأمة الميث الأول - أمة الرسالة الأولى - اسمها المؤمنون ، لدى الدقة ، وإنما أخذت اسم المسلمين ، الذي يطلق عليها عادة ، من الإسلام الأول ، وليس ، على التحقيق ،

من الاسلام الاخير .

وانت حين تقرأ قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام »
يجب ان تفهم ان المقصود الاسلام الاخير ، وليس ، على
التحقيق ، الاسلام الأول ، ذلك بان الاسلام الاول بيئته عبدة ،
واما كان الاسلام الذي عصم الرفاق من السيف ، وقد حب
في حظيره رجال اكل العاق قلوبهم ، وانطوب صلواتهم على
بعض البى وامحاه - ثم لم ير صلواتهم عن حبها ، وذلك
لان المعصوم قد قال « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان
لا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا ، عصموا من دماءهم ، وأموالهم ،
الا يحقها ، وأمرهم الى الله » ولقد نشأ الاسلام بين الغريين
مكة والمدينة . بدأ في مكة ، فلما احرم فيها هاجر الى المدينة ،
حيث اقتصر . وما كان له أن يتصرف في مكة ، ولم يتصرف . « وتلك
الأمثال فطريتها للناس ، وما يعقلها الا العالمون » .

ما انتصر الاسلام ، واما انتصر الايمان . ولقد جاء القرآن
مقسماً بين الايمان ، والاسلام . في معنى ما جاء امراله مقسماً
بين مدني ، ومكي . ولكل من المدني والمكي مميزات يرجع
السبب فيها الى كونه المدني مرحلة ايمان ، والمكي مرحلة
اسلام .

فكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ « يا أيها الذين آمنوا » فهو

مدني، ماعدا ما كان من أممورة الحج ، وكل ما ورد فيه ذكر
المدنيين هو مدني ، وكل ما جاء فيه ذكر الجهاد ، ويبان
الجهاد ، فهو مدني ، هذا الى جملة ضوابط أخرى .

واما المكي فمن ضوابطه ان كل سورة ذكرت فيها سجدة
فهي مكية ، وكل سورة في أولها أحروف التهجي فهي مكية ،
سوى سورتي البقرة ، وآل عمران ، فأما مدينتان ، وكل ما
وقع فيه الخطاب لفظ « يا أيها الناس » أو « يا بني آدم » فانه
مكي ، سوى سورة الباء ، وسورة البقرة ، فأما مدينتان
وقد استهلتا أولهما بقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم »
وفي آخرهما « يا أيها الناس اعلوا ربكم » . والشواذ عن
الضوابط ، بين المكي والمدني ، اما سببا لتداخل بين الايمان
والاسلام ، فانه ، كما ذكرنا ، كل مؤمن مسلم في مرتبة البداية ،
وليس مسلما في مرتبة النهاية ، وكل مسلم مؤمن ، وليس يترك .
والاختلاف بين المكي والمدني ليس باختلاف مكان
الرسول ، ولا باختلاف زمن الرسول ، وانما هو اختلاف
مستوى المحاطين . فأيها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة . وبأيها
اناس فيها شمول لكل الناس . فاذا اعتبرت قوله تعالى « لقد
جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص
عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » - وقوله تعالى « ان الله بالناس
لرؤوف رحيم » وأدركت فرقا ، فأعلم انه الفرق بين المؤمن
والمسلم ، وهو مستوى كل من الخطابين . وورد خطاب

المباشرين في المدينة ، ولم يرد في مكة ، مع ان زمس الرسول في مكة ثلاث عشرة سنة ، وفي المدينة عشر سنوات ، أو يصل ، وذلك لأنه لم يكن بمكة ماعمود . وانما كان الناس أما مؤمنين ، أو مشركين ، وما ذلك الا لأن المع لم يكن من أساليب الدعوة ، بل كانت آيات الاسماح هي صاحب الوقت يومئذ ، « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن ، ان ربك هو اعلم بمن صل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين » واحواتها ، ومن كثر .

وحين تمت الهجرة الى المدينة، ونسحت آيات الاسماح، واتقل حكم الوقت الى آية السيف ، ونظائرهما ، « فاذا انسلح الاشر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلواهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ، واقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ان الله عفود رحيم . » ودخل الحوف في ميدان الدعوة ، واضطرت نفوس الى التقية ، اسرت أمرا واعلنت تحريمه ، ودخل بذلك المفاق بين الناس .

وكون ذكر الجهاد ، وبيان الجهاد، من صوابط الآيات المدينة، لا يحتاج الى تعليق .

وأما كون المكية من ضوابطها ذكر السجدة ، فذلك لأن السجدة اقرب الى الاسلام منها الى الايمان . وفي حديث

المعصوم : « اقرب ما يكون المدلر له وهو ساجد » وفي القرآن الكريم « واسجد ، واقرب » وفيه سر عظيم من اسرار السلوك الى مازل العبودية .

ومنها ان تفتح السور بحروف التهجي ، وهذا باب عظيم . وفيه سر القرآن كله ، والحديث عنه لا يتسع له هذا المقام . وانما تكفى منه ما نحن بصدده من بيان الفرق بين رسالتى الاسلام . وعدد الحروف التى حرى بها الافتتاح اربعة عشر حرفا ، وهى بذلك نصف الحروف الالهية . وقد امتحت بها تسع وعشرون سورة ، على أربع عشرة تشكيلا ، هى : أ ل م ، الم ص ، الم ر ، الم ر ، ك ه ي ع ، ط ه ، ط م ، ط ن ، ي س ، ص ، حم - عسق ، ق ، د ، د . وكل هذه التشكيلات ورد بعدها ما يفيد انها القرآن ، وأوضح شيء فى ذلك قوله تعالى من سورة البقرة : « أ لم * ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » ذلك اذا وقعت على « فيه » ، أو شئت وقعت على « لا ريب » فحامت الايتان هكذا « أ لم * ذلك الكتاب لا ريب ، فيه هدى للمتقين » وفى كليهما فان الاشارة بذلك الى « أ ل م » .

ومعنى الحرف أنه من كل شيء طرفه ، وشفيره ، وحده ، ومنه « حرف الجبل » وهو اعلاه المحدد الرفيع .

ولقد مرت على حروف التهجي حقب سحيقة وهى تتقلب

في صور بدائية جدا ، قبل أن تأخذ شكلها الحاضرة ، ذلك
بأن الحاجة الى الكتابة انما نشأت مع الحاجة الى اللمعة في
وقت واحد ، وتلك حاجة سبق الحاجة الى العرف الذي سمع
اشارتنا اليه ، حين قلنا أن المجتمع الأول نشأ حول عرف قيد
روايات الفرد ، وبوجوب رعاية حدود معينة ، واجبة الرعايه .
والحاجة الى وسيلة التفاهم ، وهزل الأفكار ، حاجة أمثلتها
ضرورة المعيشة في مجتمع . ولقد شعر بضرورة الاجتماع
جميع أصناف الحيوان ، ولكن الانسان هو وحده الذي ظهر
منه بعاقته ، وذلك لمقدرته على التفاهم عن طريق « تقليد »
أصوات الأشياء ، والأحياء ، ومحاكاة الحركات ، وقد ساعده
على ذلك استواء قامته ، ولقائه حركات يديه ورأسه ، وارتفع
أوتار صوته . فالى ملكة « التقليد » التي اضرد بتجويدها الانسان
عن سائر الحيوان ، يرجع الفضل في نشأة اللغة ، ونشأة الكتابة ،
وفي اطراد ارتقائهما ، من بدايات سيطرة ، سادحة ، الى أدوات
شارفت الاتقان في عصره الحاضر . بل أنه الى هذه الملكة التي وهبها
الله للانسان ، يرجع الفضل في التعليم والاثان . فانه ، من
أجل تجويد التقليد ، لا بد من استيعاب الأشياء المراد تمثيلها
استيعابا عقليا كاملا ، ثم لا بد من التناسق بين أدوات التقليد
وبين العقل ، سواء كانت أدوات التقليد اليدين ، أو الرأس ، أو
الوجه ، أو العينين . والى هذا المجهود المبذول في تناسق
حركات التقليد يرجع الفضل في توحيد العقل والجسد . وهو

توحيد لم يكتمل بعد ولا يزال يطرد •

ومع أن الحاجة الى الكتابة ظهرت في نفس الوقت مع الحاجة الى اللغة الا أنها لم تكن في مستوى واحد من اللاح ، ومن الضرورة • ولقد أغت الإشارة عنها الى ردح طويل • ولقد بدأت الكتابة برسم الأشياء ، والحيوان المراد التمييز عنها • أو ربما برسم حادثة يرمتها يراد نقلها الى أحد لم يكن شاهدها • ولقد كان رسم صورة الحيوان من مراسيم الصيد ، وهي مراسيم تصل بالقيدة والعبادة ، فكان الصياد كان يعتقد أنه يعرز الحيوان في الصيد ، حين يعرز صورته في كهفه الذي يقيم فيه • وذلك للصلة التي اعتقدها بين الصورة والروح •

ثم تطور الفهم فأصبح الفنان يجتري برسم جزء معين للحيوان للتمييز عن سائر ، كأن يرسم رأس الثور فقط بدلا من رسمه كله • ثم انمرد التطور في تبسيط صور الأشياء والأحياء حتى جاءت الحروف الأبجدية الحاضرة ، في تحقيق الآماد ، وبعد تطور بطيء ، طويل • •

وعند حروف التهجى يختلف في اللغات المختلفة ، وهو في لغتنا ثمانية وعشرون حرفا ، أولها الألف وآخرها الفين ، وهي في ذلك أكمل اللغات •

وإد دفعت الضرورة الى اللغة ، دفعت أيضا الى الحساب ، وقد نشأ الحساب نشأة ساذجة ، وبدائية أيضا ، وأعان عليه ،

وبعث في الذهن ، أصابع اليدين والقدمين ، فانها ظاهرة تبعث على التأمل ، والتمجيد ، ولقد كان العدد ، ولا يزال ، يمارس على أصابع اليدين ، وهذا من الأسباب التي جعلت العشرة تتخذ أساسا للعد . ولم تظهر الأرقام التي نعرفها الآن الا بعد زمن طويل من التطور من الصور البدائية للأعداد . ولقرينة الرمز والاشارة ونقل العبارة ، التي تربط بين اللغة والحساب استعملت أحرف الهجاء بدلا من الأرقام منذ زمن متقدم ، كما هو معروف في الأرقام الرومانية، وهم قد كانوا مسبوقين الى ذلك باليونانيين . ولقد سرى هذا الاستعمال الى اللغة العربية ، فجعلت الأحرف التسعة الأولى لتسبب عن الأحاد التسعة ، والحرف العاشر وما بعده يدل على العقود : الى الحرف الثامن عشر ، ومن الحرف التاسع عشر والى الثامن والعشرين تدل على المئات ، فأصبح بذلك الرقم المقابل لنهاية الأبجدية الألف ، وهذا هو الذي حملنا قول أن اللغة العربية أكمل اللغات ، وذلك لما للرقم « ألف » من قيمة روحية « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » أو حين يقول « انا أنزلناه في ليلة القدر » وما أدراك ما ليلة القدر » ليلة القدر خير من ألف شهر » وهي تعني ألف عام . وحين يقول « من الله ذى المآرج » تفرح الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . والقرآن كله ذو شكل هرمي . له قاعدة ، وله قمة ، وهو يتفاوت بين القاعدة والقمة في معان تدق كلما ارتقت نحو القمة . فهو تفاوت بين حسن وأحسن . وفي قمة القرآن الحروف الهجائية

التي أصبحت بها السور ، وهذه الحروف ، في ذاتها ، ذات شكل
هرمي أيضا ، يتفاوت بين قاعدته وقمة . فالحروف على ثلاث
درجات :

الحروف الرقمية ، والحروف الصوتية ، والحروف الفكرية .
فالحروف ارقمية هي اشمايه والعشرون المروقة ، ومنها يألف
الكلام الظاهر . والحروف الصوتية لا حصر لها ، وهي ،
المسروع منها ، وغير المسروع بالخطه ، تؤلف الحواطر التي
تجيش في العقل الباطني . وأما الحروف الفكرية فهي مكنوت
كل شيء ، وهي كلمات الله التي قال عنها ، جل من قائل « قل لو
كان البحر مذكرا لكلمات ربي لنعد البحر قفلا ان تنفذ كلمات
ربي ، ولو جئنا بمثله مددا » . ومن هذه الحروف الفكرية
تتكون الحواطر المتكئة في العقل الباطن ، وفي سويدائه
الجميعه الارلية ، وعلى جواثيه الديس . والى الحروف
ارقمية ، والحروف الصوتية ، والحروف الفكرية ، الاشارة
بقوله تعالى « وان نهر بالقول ، فانه يعلم السر ، وأخفى » فالقول
المحوريه يقابل الحروف الرقمية ، والسر يقابل الحروف الصوتية ،
وأما الحروف الفكرية فيقابلها « سر السر » وهو المبر عنه
بكلمة « وأخفى » ومن هذه الحروف الفكرية ما لا يسمع
الا بالعامة السابعة .

والى هذه المراتب الثلاث أيضا الاشارة بقوله تعالى
« وحشمت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا » وهي آية

في الجهر ، وفي السر ، أي في القول باللسان وفي الحواطر ،
وأما سر السر فإن فيه قوله تعالى « وعنت الوجوه للحي القيوم »
وقد حاب من حمل ظلما » . والظلم هنا الشرك الحس ، وهو
الكبت الذي به انقسمت الشخصية البشرية إلى عمل واع ،
وعقل باطن ، بينهما تضاد وتعارض .

ولقد تحدثنا عن الكتيبة سلف من هذا الكتاب ، وقلنا
أنه يعمل الحرف . وقلنا أن الحرية الفردية المطلقة تتطلب
الحرية من الخوف ، ومن أجل الحرية من الخوف ، على إطلاقه ،
وحب تنظيم المجتمع على صورة تؤمن الفرد من الخوف على
الرزق ، والخوف من تسلط الحاكم ، والخوف من تمت
الرأي العام . ثم وجب إعطاء الفرد فكرة متكاملة عن علاقته
بالبينة ، وعن حقيقة البيئة التي عاش فيها أسلافه ، والتي لا يزال
يعيش فيها هو ، حتى يستطيع أن يتحرر من المعد القديم التي
ترسخت في عقله الباطن ، وورثها صاعرا عن كابر ، في تحقيق
الآمال .

ولقد تحدثنا عن أسلوب القرآن العكسي ، في تعليم
الإنسان ، والطردي ، وذلك على عرار الآية الكريمة « سرصم
آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » أو لم يكف
بربك أنه على كل شيء شهيد . » وقلنا أن هذا يعني في السلك
أن السالك يجاهد في ترك محالقات الأعمال ، وأن سمح
لنفس في تلك المرحلة بمحالقات اللسان ، كتدريج لها ، فإن هو

استقامت له المجاهدة في هذه المرتبة ، زحف الى ترك مخالقات
اللسان ، وان ترك للنفس سعة ، في هذه المرحلة ، في مخالفة
الحواطر في العقل الواعي ، بأن سمح بجولان الخواطر الشريرة
فيه ، وذلك أيضا تدريج للنفس . ثم ان هو استقامت له المجاهدة ،
في هذه المرتبة أيضا ، انتقل الى تحريم جيشان الخواطر في
العقل الواعي ، وهكذا الى ان يصل الى تقيّة خواطر العقل
الباطن ، ويومئذ تتم سلامة القلب ، فيرى في صفوها الله العظيم ،
ويبدأ من هناك الاسلوب الطردى في التعليم . ويكون السالك هما
في سلام مع نفسه ، ومع ربه ، ومع الأحياء ، والأشياء . وهذا هو
الاسلام في قمة وهو الذي أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين به
حين قال « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، ولا
تتموا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين » فالسلم هنا هو
السلام ، وهو الاسلام في قمة .

أمة المؤمنين

قلنا لقد جاء القرآن مقسما بين الايمان والاسلام ،
كما جاء ازاله مقسما بين مدني ومكي ، وكان المكي سابقا على
المدني ، وبعبارة اخرى ، بدى بدعوة الناس الى الاسلام فلما
لم يطيعوه ، وظهر ظهورا عمليا قصورهم عن شأوه ، نزل عنه
الى ما يطيعون . والظهور العملي حجة قاطعة على الناس ، وهو
المعنى بقوله تعالى « وتبليوكم حتى تعلم المجاهدين منكم ، والصابرين ،
وتبليو اخباركم » حتى تعلم علم تحربة لكم ، والا فان علم الله غير

حادث ، و « المجاهدين » يعنى الجهاد الاكبر ، وهو مجاهدة النفس ، « والصابرين » يعنى الصابرين عن الله ، « ونبيلو أبحاركم » يعنى نستخرج خبوايطركم المكبوتة فى العقل الباطن - فى سرسركم . والآيات الدالة على الرسول من أوج الاسلام ، الى مربية الايمان كثيرة ، نذكر منها قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » فلما قالوا ايذا يستطيع ان يتقى الله حق تقاته ؟ نزل قوله تعالى « فأتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، واطيعوا ، وأتقوا خيرا لا تفكركم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولما نزل قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » شق على الناس فقالوا : يا رسول الله اينما لا يظلم نفسه ؟ فقال « انه ليس الذى تمون ، ألسم تسمعون ما قال العبد الصالح ؟ (يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم) انما هو الشرك » فصرى عنهم ، لأنهم علموا انهم لم يشركوا مد آمنوا .. والحق ان المعصوم فسر لهم الآية فى مستوى المؤمن .. وهو يظلم ان تفسيرها فى مستوى المسلم فوق طاقتهم ، ذلك بان « الظلم » فى الآية يعنى الشرك الحقيقى على نحو ما ورد فى آية سر السر « وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما » وقد وردت الإشارة اليها .

ولقد قيل انه لما نزل قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » قال النبى

« فيل لى ات مهم » والنبي ليس من المؤمنين ، وانما هو اول المسلمين . « قل ان صلاتي ، ونسبي ، ومحياي ، ومماتي ، لله رب العالمين » لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وانما اول المسلمين » .

وقلنا ان امة الرسالة الاولى هي «المؤمنون» ، والقرآن ، حين يسمى المسلمين في عهد موسى يهودا أو «الدين هادوا» ، ويسمى المسلمين على عهد عيسى «نصارى» يسميهم ، على عهد اسمعيل المحمدي الاول ، «المؤمنين» أو «الذين آمنوا» اسمه يقول «ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، واصباثين ، من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» واسمعه يقول «ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصائبون ، والنصارى ، من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون» وهناك آية هي آية في بيان ما نحن بصدده ، وذلك حين يقول «يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا » فهو يسميهم «الذين آمنوا» ، ثم يندبهم الى الايمان .

ان كل من له بصير بالمعاني اذا قرأ قوله تعالى «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم

مسلمون » ثم قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، وأطيعوا ، واسمعوا حيرا لأصكم ، ومن يوشح نفسه فأولئك هم المفلحون » علم أن هناك معنى - معنى أصليا ومعنى فرعيا - . واسم المراد ، في المكان الأول ، المعنى الأصلي . واد أملت الضرورة تأجيله ، لنقل العمل الى المعنى الفرعى ، رشا يتم التحول ، من الفرع الى الأصل ، سهو الطرف المناسب لذلك ، والطرف المناسب هو الرمن الذى يصح فيه الاعتماد البشرى ، الفردى والجماعى ، وتبع الطاعة . والى قص الاستعداد هذا يرجع السبب فى تأجيل أصول الدين والعمل بالفروع . . واليك بيان ذلك : -

الجهاد ليسى اصلا فى الاسلام

الأصل فى الاسلام ان كل اسان حر ، الى أن يظهر ، عمليا ، عجزه عن الترام واحبالحرية ، ذلك بأن الحرية حق طبيعى ، يقابله واجب واجب الأداء ، وهو حسن التصرف فى الحرية . فاذا ظهر عجز الحر عن الترام واحبالحرية صودرت حريه ، عندئذ ، بقانون دستورى ، والقانون الدستورى ، كما سلفت الى ذلك الإشارة ، هو القانون الذى يوفق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وقد قررنا آنفا ان ذلك هو قانون المعاوضة .

هذا الاصل هو أصل الاصول ، وللوعاء به بدئت الدعوة

الى الاسلام آيات الاسماح ، وذلك في مكة ، حيث نزلت وأدع
الى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي
هي أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم
بالمهتدين ، وأخوانها ، وهن كثيرات ، وقد ظل أمر الدعوة
على ذلك ثلاث عشرة سنة ، بل أثناءها كثير من القرآن
لمعمر ، وتخرج أثناءها من المدرسة الجديدة ، كثير من
البادج الصالحة ، من الرجال والنساء والصبيان . وكان
المسلون لا يولون يكفون اذاهم عن المشركين ، ويحتفلون الاذى ،
ويضحون ، في صدق ومروءة ، في سبل نشر الدين ، بكل أطايب
العيش ، لا يضعفون ولا يستكينون يبينون بالقول
الليق ، وبالسودج الصادق ، واحب الناس ، في هذه الحياة ،
بحورهم ، باخلاص عبادته ، ونحو بعضهم ، بصلة الرحم ،
واصلاح ذات البين .

والله سبحانه وتعالى يقول « وما خلقت الجن والانس الا
ساجدون » ولقد أعطانا من نعم العقل ، والحسد ، وأطاب
العيش ، ما يمكننا من عبادته وعرفان فضله . ويقول « ان الله
يأمر بالعدل ، والاحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء ،
والمكر ، والنهى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ويقول « ولا تقتلوا
أولادكم من اطلاق ، نحن نرزقكم وابائهم ، ولا تقربوا القواض ، ما
ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ،
لكم وصاكم به ، لعلكم تفلحون » . . . كل ذلك جاء به القرآن في

الدين الجديد ، وطمع النبي وأصحابه ، بالقول ، وبالسيرة ،
 وفيه لأمر الناس صلاح وفلاح ، فادا أصر الناس ، بعد ذلك ،
 على عادة الحجر الذي يحتنون . وعلى قطع الرحم ، وقتل النفس ،
 وواد البنت ، فقد أساءوا التصرف في حريتهم ، وعرضوها للمصادرة ،
 ولم يكن هناك قانون لمصادرتها ، فلم يبق الا السيف ، وكذلك
 صودرت . وبعد أن كان العمل بموله تعالى « فذكر انما أب
 مذكر » لست عليهم بمسيطر » انتقل الى قوله تعالى « الا من
 تولى وكفر » فيعذبه الله العذاب الأكبر « فكأنه قال أما
 من تولى وكفر فقد جعلنا لك عليه السيطرة ، فيعذبه الله بذلك
 العذاب الأصغر بالقتال ، ثم يعذبه العذاب الأكبر بالدار . » ان
 اليسا أيابهم » ثم أن علينا حسابهم » واعتبرت الآياتان
 السابقتان مسوختين بالآيتين التاليتين ، وكذلك نحت جمع
 آيات الاسماح ، وهن الأصل ، بآية السيف واحواتها ، وهن
 فرغ أمته الملاسة الرماية ، وقصور الطاقة الشرية ، يومئذ ،
 عن الهوص بواجب الحرية . ومن ههنا جاء حديث المعتصم
 حين قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ،
 وأن محمدا رسول الله . فادافعوا ، عصموا مني دماءهم
 وأموالهم ، الا بحقها ، وأمرهم الى الله » .

وقد ظن بعض علماء المسلمين ان حروب الاسلام لم
 تكن الا دفاعية ، وهذا خطأ قادم اليه حرصهم على دفع فرية بعض
 المستشرقين الذين زعموا أن الاسلام اما استعمل السيف

لينشر • والحق ان السيف انما استعمل لمصادرة حرية اسيء استعمالها ، وقد تلت ذلك ثلاثة عشر عاما يدعو الى واضحة من أمر الفرد ، وأمر الجماعة ، فلما لم يهضوا بأعباء حريتهم ، ولما لم يحسوا التصرف فيها ، رجع من أيديهم قيامهم بأمر أنفسهم ، وجعل النبي وصبا عليهم ، حتى يعلموا سن الرشد • هذا دخلوا في الدين بجديد ، فحرموا من دمائهم وأموالهم ما حرم ، ووصلوا من رحمتهم ما أمر به أن يوصل ، رفع عنهم السيف ، وجعلت مصادره حرية المنيء انى العاؤون الجديد ، وكذلك جاء لتشريع الاسلامى ، ونشأت الحكومة الجديدة •

وكل ما يقال عن تبرير استعمال الاسلام لسيف هو انه لم يتمله كمدية الجرار ، وانما استعمله كبصع الطيب • وكاتب عبده الحكمة الكافية ، والرحمة الكافية ، والمصرفة الكافية ، التى نعمله طيبا لأدواء القلوب • ولقد قال تعالى في ذلك « لقد أرسلنا رسلنا باليات ، وأنزلنا معهم الكتاب ، والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، ويعلم الله من يصرفه ورسله بالعب ، ان الله قوى عزيز » قوله « لقد أرسلنا رسلنا باليات » يعنى بالدلائل القواطع على صدق دعواهم ، « وأنزلنا معهم الكتاب » يعنى « لا اله الا الله » و « الميزان » يعنى الشريعة لورن ما بين العبد والرب ، وما بين العبد والعبد • « وليقوم الناس بالقسط » يعنى

ليعدوا في المعاملة ، وقوله « وأزلبا الحديد » فيه بأس شديد ،
ومافع للناس « يسمى وشرعب لقال بالسيف في مصادرة حرية
من لا يحسن التصرف في الحرية ، حتى يرد بأس السيف الى
صوابه ، فيحرر يومئذ حريته ، ويعص ويتعم بحبائه .. هذا
ناطع الى ما للحديد من مافع أخرى لا يحتاج منا الى اشارة .
وقوله « وليعلم الله من يصره ورسله بالغيب » يعلم علم تحرره
لكم ، لأن القتال كره للنفس .. ليعلم من يحتمل مكروه
الحرب في سبيل الله لصره المنصفين ، تأقامة القسط بين
كل فرد وبين نفسه ، وبينه وبين الآخرين وقوله « ان الله قوي
عزير » يسمى بالقوى الذى لا يحتاج لنصرة ناصر ، ولا عزير .
يسمى لا يزال ما عنده الا به ، وما عنده في هذا المقام هو النصر ،
فكأنه يشير اشارته لطيفة الى قوله تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ،
ويثبت أقدامكم » ان تنصروا الله بصره أبنائه لاقامة القسط ،
ينصركم الله على أنفسكم . وهذا يسمى ، بعبارة أخرى ، ان تنصروا
الله في الجهاد الأصغر ، ينصركم في الجهاد الأكبر ، حيث لا قوة
لكم الا به ، ولا ناصر لكم الا هو . « ويثبت أقدامكم » يسمى
يطمئن قلوبكم . وتثبيت الأقدام الحسينية غير محدود في مقام النصر .
ومن الحكمة في طلب أدواء القلوب أن تبدأ الدعوة باللبس ،
وآلا يلجأ الى الشدة الا حين لا يكون معها بد ، فأن الكى آخر
الدواء . وما العذاب بالقتل بالسيف في الدنيا الا طرف من
عذاب الآخرة بالنار ، وليس لعذاب الآخرة موح إلا الكفر ،

وكذلك الأمر في القتال . . فإن هو أضاف إلى الكفر دعوة إلى الكفر ، وصدا عن سبيل الله ، فقد أصبح قتله وقتله واجب ، والا فهو مقاتل بكفره لا محالة : قال تعالى « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فينفقوها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يطغيون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴿١﴾ ليميز الله الحبيث من الطيب ، ويجعل الحبيث بمصه على بعض ، يركبه جميعا ، فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴿٢﴾ قل للذين كفروا ان يتهوا بمنزلهم ما قد سلف ، وان يعودوا بقد تمت سنة الأولى ﴿٣﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » تأمل قوله تعالى « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الحبيث من الطيب » تعد ان موجب العذاب هو الكفر « ما يعمل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ؟ وكان انه شاكرا عليما » . وقوله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » يعني حتى لا يكون شرك ، ودعوة إلى الشرك ، وصدا عن سبيل الايمان . وقوله « ويكون الدين كله لله » هو غرض القتال الأصلي « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » ذلك أمر الله . والله بالغ أمره ولو كره الكافرون .

وقال تعالى في موضع آخر « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » والظالمون على مستويين : مستوى من يجعل الدين لغير الله ، ويصر على ذلك . ومستوى من يدعي لله بالطاعة ولكنه يشمدي على حقوق الناس ،

ويجيب عليهم • وفي الآية أمر بمبادرة حرية من يسمى التصرف
في الحرية • وأما تكون المصادرة على مستوى الإساءة •
فللجاحدين قانون الحرب ، وبأس الحديد • وللمعتدين على حقوق
الناس قانون السلام ، وفصل الحقوق • وهذا هو معنى قوله تعالى
« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُوا بِالْحَقِّ وَلَا بِالسَّلامِ » •

والنزول من المعنى الأصلي إلى المعنى الفرعي يسمى النزول
من مستوى الإسلام إلى مستوى الإيمان ، ومن هنا يجب أن
يفهم قوله تعالى « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ،
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » قوله « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ » يعنى القرآن كله ،
مشملا على الأصل - الإسلام - والفرع - الإيمان • وقوله
« لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » يعنى لتفصل بالتشريع ، وألوان
التبيين ، للمؤمنين ما نزل إلى مستواهم • قوله « وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ » يعنى لعل الفكر ، أثناء العمل بالمعروف ، يمودهم
إلى الأصل الذى لم يطبقوه أول أمرهم • وفي ذلك إشارة بأهمية
الطبيب إلى السير فى مراقبة الإسلام المختلفة ، متدنياً
بالإسلام الأول • صاعداً بوسائل الفكر الصافي ، والقول المدد ،
والعمل المحلص • فآته « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » •

نخلص مما تقدم إلى تقرير أمر هام جداً ، وهو أن كثيراً من
صور التشريع الذى بين أيدينا الآن ليست مراد الإسلام

بالأصالة ، وأما هي نزل للملايسة الوقت والطاقة البشرية .

الرق ليس أصلا في الاسلام

فالأصل في الاسلام الحرية ، ولكنه نزل على مجتمع الرق به حراً ، من النظام الاجتماعي والاقتصادي . وهو مجتمع قد سهر عليه أنه لا يحسن التصرف في الحرية ، مما أدى الى بيع قدام أفرادهم ، وجعل ذلك الى وصى عليهم ، وقد رأينا أن هذا أدى الى شرعية الجهاد . ومن أصول الجهاد في سبيل الله أن يعرض المسلمون على الكفار أن يدخلوا في الدين الجديد ، فإن هم دأروا ، والا فإن يعطوهم الحرية ، ويمشوا تحت حكومتهم ، معين على دينهم الأصلي ، آمين على أنفسهم . فإن هم أبوا عليهم هذه الحطة أيضا ، حاربوهم . هذا هو موعدهم أخذوا منهم مبيعا ، فرد هؤلاء في عدد الرقيق السابق للدعوة الجديدة .

والحكمة في الاسرافاق هم . على قانون المعاوضة . فكأن الانسان عندما دعى ليكون عبدا ، فاعرض ، دل اعتراضه هذا على حبل يحتاج الى فترة مرافقة ، يستمد أثناءها للدخول ، عن بلوانية ، في المبودية لله ، فجعل في هذه الفترة عبدا للمخلوق لتتمرس على الطاعة التي هي واجب العبد . والمعاوضة هنا هي أنه حين رفض أن يكون عبدا للرب ، وهو طليق ، وأمكنه الهزيمة منه ، جعل عبدا للعبد . حراء وفاقا . ومن يعمل ،

مقال ذرة ، شرا ، يره •

وهكذا اصاف أسلوب الدعوة الى الاسلام ، الذي
اقتضته ملائسته الوقت ، والمساوى البشرى ، الى الرق
الموروث من عهود الجاهلية الاولى ، رقا جديدا ، ولم يكن
من الممكن ، ولا من الحكمة ، ان يبطل الشريع نظام الرق ،
يجرة فلم ، تمنيا مع الأصل المطلوب في الدين ، واما تمضي
حاجة الأفراد المسترقين ، ثم حاجة المجتمع ، الاجتماعية ،
والاقتصادية ، بالأبقاء على هذا النظام ، مع العمل المستمر على
تطويره ، حتى يخرج كل مسروق ، من رقه الرق - اى ناحة الحرية
ومره التطوير من فترة اتصال ، يصرى أثناءها الرقيق على ايام
على رجليه ليكسب قوته من الكدح المشروع ، وسط مجتمع
تحرر أيضا ، أثناء فترة الاتصال ، على تنظيم نفسه بصروره لا تسد
على استعمال الرقيق ، ذلك الاستعمال البشع الذي يهدر
كرامتهم ، ويصطهد آدميهم ، والذي كان حظهم التمس اباد
الجاهلية •

وهكذا شرع الاسلام في الرق ، فعمل للرقيق حقوقا
وواجبات ، بعد ان كانت عليهم واجبات ، وليس بهم حقوق •
ثم جعل الكفارات ، والعربات ، مستق الرقاب المؤمنة ، السليمة ،
الدومة • وأوجب مكاتبه المدا الصالح الذي يستطيع أن يهدى
نفسه ، وأن يعيش عيشة المواطن الصالح • وهو في أثناء ذلك

يدنو الى حسن معاملتهم فيقول المصنوم « خولكم أحوالكم ،
جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تطعمون ،
واكسوهم مما تلبسون » .

الإنسانية ليست أصلا في الإسلام

والأصل في الإسلام شوع المال بين عباد الله ، يأخذ كل
حاجته ، وهي زاد المسافر . وذلك أمر يلتمس تطبيقه في حياة
المسلم الوحيد في تلك الفترة ، وهو النبي . ولكن الإسلام نزل
على قوم لا قل أهم به ، فلا يعرفون إلا أن المال مالهم . وهم
لم تكن عليهم حكومة تحمل لهم مالهم هذا وظيفة يؤدونها ،
وبذلك فقد شقت على نفوسهم الركاhe التي جعلت على أموالهم ،
وكاسب ، لدى التحاق النبي بالرفيق الأعلى ، السبب المباشر
في الردة . وفي حقهم يقول تعالى « إنما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ،
وأن تؤمنوا ، وتنهوا ، يؤركم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم
* أن يسألوها فيحكم . سخلوا ، ويخرج أضغانكم *
هأنهم هؤلاء تدعون لتسفوا في سبل الله ، فمكسب من يخل ،
ومن يخل فإما يخل عن نفسه ، والله الغني ، وأنتم الفقراء ، وأن
تولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا تكونوا أمثالكم » قوله « إنما
الحياة الدنيا لعب ، ولهو » يعني فترة غفلة ، وجهالة ، لا تحتمل
مسئولة الرجال . وقوله « وأن تؤمنوا » يعنى بالله ، ورسوله ،
« وتقوا » يعنى الكفر ، والشرك ، والكبائر ، « يؤركم أجوركم »

يعنى ثواب هذه الأعمال . قوله « ولا يسألکم أموالکم »
يعنى كلها فى الصدقة ، قوله « ان يسألکموها فيحفکم ، بحلوا »
يعنى أن يسألکم فى الصدقة كل أموالکم تبخلوا عن
طاعة هذا الأمر الشاق على نفوسکم ، وقوله « وبخرج
أصعابکم » يعنى يظهر ما تنطوى عليه صدورکم من حب المال ،
وضعف اليقين ، وكون الشرك . قوله « وان تتولوا يستبدل قوما
غيرکم ، ثم لا يكونوا أمثالکم » فيه اشارة لطيفة جدا الى المسلمين
الذين يعيشون بعد المؤمنين ، ثم يكونون حيرا منهم . وهذا هو
السبب الذى جعل تشريع الاسلام فى المال دون حقيقة مراده ، وذلك
تخفيانا على الناس ، وتدريبناهم ، ودرءه للشبهة عن تفسير
أحصرت الشح . وهكذا جاءت الزكاة ذات المقادير وجعلت ركنا
تعبديا فى حقهم ، وذلك بحسن المظف . يصاب الى الاعتبار
الفردى اعتبار آخر ، هو أن شمس الاشتراكية لم تكن قد
أشرقت على عالم يومئذ بعد .

عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس أصلا فى الاسلام

والأصل فى الاسلام المساواة التامة بين الرجال والنساء ،
ويلتزم ذلك فى المسئولية الفردية أمام الله ، يوم الدين ، حين تصب
حوازين الأعمال . قال تعالى فى ذلك « ولا تزرر وازرة وزر أخرى ،
وأن تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا
قربى ، انما تنذر الذين يحشون ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، ومن

تركى فانا يركى بعنه ، والى الله المصير» وقال تعالى «ايوم يجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم ايوم» ان الله سريع الحساب » وقال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينه» ولكن الاسلام نزل ، حين نزل ، على قوم يدعون النسخة حروف العار الذى نحره عليهم اذا عجزوا عن حديثها فسميت ، او فرارا من مؤوتها اذا احدثت الارض ، وصافى البرق . قال تعالى عنهم « واذا بشر احدكم نلاشى فل وجهه مودا وهو كظيم » ينوارى من القوم من سوء ما بشر به ، ايمسكه على هون ، ام يده فى التراب ؟ الا ساء ما يحكمون » ومن ههنا لم يكن المحص مستعدا ، ولا كذب المرأة مستمده ليشرع الاسلام بحقوقها فى منوى ما يريد بها من الخير ، وكان لاند من مرة افعال ايضا يتطور فى انائها الرجال والنساء ، افرادا ، ويتطور المجتمع ايضا . وهكذا جاء التشريع ليحمل المرأة على النصف من الرجل فى الميراث ، وعلى النصف منه فى الشهادة . وعلى المرأة الخضوع للرجل ، ابا واحا وروجا . . . الرجال قوامون على النساء بما فصل الله بعضهم على بعض ، وما اتفقوا من اموالهم » والحق ، ان فى هذا التشريع قفزة بالمرأة كبيرة ، بالمقارنة الى حظها سابقا ، ولكنه ، مع ذلك ، دون مراد الدين بها .

تعدد الزوجات ليس اصلا فى الاسلام

والاصل فى الاسلام ان المرأة كفاة للرجل فى الزواج ،

فالرجل كله للمرأة كلها ، بلا مهر يدفعه ، ولا طلاق يقع بينهما .
ويتمسك مع التعدد في قوله تعالى « فان حصبم الا بعدلوا
فواحدة » وفي قوله تعالى « ولن يستطيعوا ان تعدلوا بين النساء
ولو حرصتم » . ويتمسك مع الطلاق في قوله المتصور « أعص
الحلال الى الله الطلاق » والاشارة للطبيعة ان ما يعممه انه لابد
منه ، حتى يصير المنع ممكنا ، وعمليا . فان الله « ارحم الراحمين » .

ويتمسك عدم ارادة الاسلام ، في أصوله ، المهر في كون المهر
يمثل ثمن شراء المرأة ، حتى كات اما تزوج من طريق مس
ثلاثة طرق . . اما ان يهبى ، أو يحطف ، أو تشتري ، فهو بذلك
من معاملات عهد هواها على الناس . وما يجب له ان يدخل
معها عهد كرامتها التي أعدها لها الاسلام . حتى تدخل أصوله دور
التطبيق .

وقد نزل الاسلام ، أول ما نزل ، على مجتمع لم يكن فيه
للمرأة كرامة ، على نحو ما رأينا آتيا . واما كات تعامل معاملة
تسلكتها في عداد الرقيق . . ولم يكن العلاقة الزوجية تقوم على
الانسانية واللفظ مما يبقى لها ، واما كان الرجل يزوج العشر
زوجات ، والمشرين ، يستولدهن ، ويستغل عملهن .

وهناك ظاهرة أخرى وحدها الاسلام في ذلك المجتمع وهي ان
عدد النساء كان يفوق عدد الرجال ، لما كات تأكل الحبوب

مهم • فشرع الاسلام في قييد الافراط في التعدد ، ولكنه
 لم ير أن يفرض بالناس الى زواج الواحدة ، لأن ذلك لا يستقيم
 له في ذلك المجتمع الذي مرر على الافراط في التعدد ، ولأنه
 رأى لأن يكون المرأة ربح رجل ، ينفقها ، ويحييها ،
 ويدعوها ، حير من أن تكون عاسا تعرض لعساديات الأيام وهي
 مدوحة الدليل • وكذلك قييد تعدد الزوجات بأربع ، فقال عز
 من قائل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ورباع -
 فان خفتهم ألا تمزجوا فواحدة » وفي موضع آخر ترد اشارة عاية
 في اللطف تحدثنا عن صعوبة العدل بين النساء ، وذلك حين قال
 تعالى « ولن تستطيعوا أن تملؤا بين النساء ، ولو حرصتم ، فلا
 تملؤا كل الميل فتدروها كالمعلقة ، وأن تصلحوا ، وتنفقوا ، فان الله
 كان عمورا رحيفا » نزل من مستوى العدل الذي هو مطلوب
 الدين ، والذي لم يكن وقتها ، بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة
 للفرد ، من رجل ، وامرأة ، قدحان يومئذ ، الى مستوى العدل
 في الشريعة ، فأعقب قوله « ولن تستطيعوا أن تملؤا بين النساء
 ولو حرصتم » بقوله « فلا تملؤا كل الميل فتدروها كالمعلقة »
 وبذلك أصبح معنى العدل هنا يقتصر على العدل المادي • • ولا
 يتناول ميل القلوب ، ولولا هذا التحايز لما أصبح تشريع التعدد
 ممكنا ، وهو ، في واقع الأمر ، تشريع ضروري ، وبخاصة لتلك
 الفترة من حياة المجتمع المؤمن •

وطبيعة العدل ها ألا يهيد الا بما يهيد به الحرية ، لأنه ها حق ، يقابله واجب ، فمن لا يصرف الواجب يسلب الحق . وكاب المرأة متحلقة كثيرا ، ولم تكن في مستوى المساواة مع الرجل ، وقد تصافرت عدة عوامل لوضعها ذلك الوضع المتخلف ، فجاء تهيد العدل في حقها عدلا ، فيه لها خدمة ، ولجتمها خدمة . ويعتبر تشريع التمدد تشريع فترة انتقال الى عصر المساواة التامة بين الرجال والنساء ، وبومها يصح العدل في حقها يشمل العدل في ميل القلوب ، وهو المعنى بقوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ويجب يومئذ القيد من قبل قوله « فأن ختمت ألا تعدلوا فواحدة » وهكذا يشرع في تحريم التمدد ، الا لدى ضرورات يميها تلجى اليه ، وينص عليها في القسامون ، ويستأمر فيها الطرف المفروض بها .

الطلاق ليس اصلا في الاسلام

والاصل في الاسلام ديمومة العلاقة الزوجية بين الزوجين ، ذلك بأن زوجتك انما هي صنوتك . هي اثباتك نفسك عندك خارجك . هي جماع آيات الآفاق لك في مقابلة نفسك ، على نحو آية .. « سترهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين اسم أنه الحق » ولكننا لا نملك النور الذي به نختار في الزواج نصفنا الآخر ، اختيارا صحيحا .. مثلنا في ذلك يقرب منه مثل الأعمى

يدى يجلس ويبين يديه «حوابير» بعضها مربع ، وبعضها مستطيل ،
وبعضها مسد ، وبعضها مبروم ، وبعضها نصف دائره ، وبعضها
مقطعات دائره على أحجام مختلفه ، وإمامه سطح عليه « أحرام »
يناسب كل منها « حابورا » من « الحواير » التى بين يديه ، فهو
يحاول ان يصنع « الحابور » المناسب فى « لحرم » المسب ،
فيمس له دنت حيسا ، ويصيه أحيانا ، بل قد يمحى عجزا تاما
عن التوفيق النام بين « الحابور » و« الحريم » . وفى الحق ، أن
هذا المثل لا يطبق تمام الانطباق على حانه اختيارا الروحه ، بل
أن الأعمى ، فى هذا المثل ، أقرب الى التوفيق ، والتسيد ، من
أحدنا وهو يمارس تحريه الاختيار هذه . فإذا أخطأ أحدنا فوضع
« حابورا » نصف دائرى فى « حرم » مربع ، مثلا ، فانه يحتاج
الى فرصة ثابته ليميد التجربه من جديد ، وانما شرع الإطلاق
ليعطيا هذه الفرصه الثابته .

عندما سمط آدم بالحطيه ، وحواء ، وأخرجنا من الجنة ،
هبط كل منهما ، فى مكان فى الأرض ، معزلا عن صاحبه ، وطقا يهتان
. آدم عن حواء ، وحواء عن آدم ، وبمد لآى ، وجد آدم
حواء ، ولم يجدها . ووجدت حواء آدم ، ولم تجده . ومنذ
ذلك اليوم والى يومنا هذا ، يبحث كل آدم عن حواءه ، ويبحث
كل حواء عن آدمها . وأبواب الضلال واسعه ، وأبواب الرشاد
ضيقه ، ولكنا ، وفيه الحمد ، فى كل يوم نستقبل مزيدا من النور ،

به تصيق دائرة الضلال ، وتنداح دثره الرشاد • وبور الأيمان لا يكفى • وهو لم يكف المؤمنين من قبل • تتمم التديد في الاختيار • فإذا أتم الله بوره ، فأشرف شمس الاسلام ، فيومئذ لا يقع خطأ في الاختيار ، مما يحاج الى التصحيح بشرع الطلاق ، فاضطائر قد التفت بالظائر • • والشكول صبت الى الشكول • • « قد علم كل أناس مشربهم » • • فالرواج في الاسلام علاقة أريية سافه للزواج في الشريعة ، وما الرواج في الشريعة الا محاولة للوصول لتلك العلاقة التي كانت بين آدم وحواء ، حين أحذب حواء من آدم « يأبها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذين تساءلون به ، والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » وما الطلاق الا فرصة الخطأ التي أتمحت للشريكين ليتعلما ، فيستعيا عن الخطأ ، فتسقط في حقهما شريعة الطلاق بعدم الحاجة اليها •

الحجاب ليس اصلا في الاسلام

والأصل في الاسلام السفور • • لأن مراد الاسلام العفة • • وهو يريد بها عفة تقوم في صدور النساء والرجال ، لا عفة مضروبة بالباب المقفول ، والثوب المسدول • ولكن ليس الى هذه العفة الغالية من سيل الا عن طريق التربية والتقويم • وهذه تحتاج الى فترة انتقال لا تتحقق أثناءها العفة الا عن طريق الحجاب ،

وكذلك شرع الحجاب • فكان الأصل ما كان عليه آدم وحواء قبل أن يزلا : « ربا آدم أسكنات وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئنا ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » • موسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ، وقال ما بهكما ربكما عن هذه الشجرة ألا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخائدين • وقاسمهما أنى لكما لمن الناصحين • ودلاهما بمرور ، فما دقا الشجرة بنت لهما سوءاتهما ، وطقا يحصمان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أهيكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين ؟ • قالا ربا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم نَعْرِ لَنا ، وترحمنا ، لكوننا من الخاسرين • قال اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين • قال فيها نحبون ، وفيها نموتون ، ومنها نخرجون • يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم ، وزيّنا ، ولباس التقوى ، ذلك خير ، ذلك من آيات الله ، لعلهم يذكرون • يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، يزعم عنهما لباسهما ، ليريهما سوءاتهما ، انه يراكم ، هو وقييله ، من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون • قوله « ليدي لهما » يعني ليظهر لهما • • قوله « ما وورى عنهما » يعنى ما غطى عنهما لباس الور • • « من سوءاتهما » من عوراتهما • • قوله « ودلاهما »

بغرور » صحهما بسائل ، وكذب ، حتى تورطا في الخطيئة ،
فلما سقطا » بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يحصعان عليهما من ورق
الجنة » فأحدا يستران عوراتهما بورق النخيل ، ومن يومئذ بدأ
الحجاب . فهو تبيحة الخطيئة ، وسيلانها حتى يزول برؤاها ،
إن شاء الله . وفي ذلك قوله تعالى « يا نبي آدم قد أنزنا عليك
لباسا يوارى سوءاتكم » ، وهو يميني قد خلقنا لكم ، وعرضا
عليكم لبس ثياب القطن والصوف وغيرهما مما يوارى عوراتكم ..
وقوله « ولباس التقوى » يسمى لباس النوحيد ، والعفة ، والعصمة
المودعة في قلوبكم ، قوله « ذلك » يسمى لباس العفة « خير » من
لباس القطن .. « ذلك » يسمى لباس القطن .. « من آيات الله »
من حكمته في تشريعه .. وكل المعنى في قوله تعالى « لعلهم
يذكرون » وسمى لعل الناس يذكرون حالة الطهر ، والبرائة
والعفة ، التي كان عليهما أمرهم قبل الخطيئة ، فتكون مهم
الرجعي . والآية الأخيرة واضحة الدلالة على ما ذهبنا إليه في أمر
الحجاب .. والسفور في الاسلام اصل لأنه حرية .. وقد
اسلفنا القول بأنه ، في الاسلام . الأصل في كل انسان أنه حر ، إلى
أن يسيء التصرف في الحرية ، فتصادر حرته بقانون دستوري ..
وقد سلفت الإشارة إلى القانون الدستوري .. اقرأ في حكمة
الحجاب قوله تعالى « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا
عليهن أربعة منكم » ، فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت ، حتى

يتوفاهن الموت ، أو يجعل اللهن سيلا . » إذا توفرت الأدلة على اعوجاج سلوكها بما لا يرقى الى الحد تصادر حريرتها بحرمانها من حها في حرية السفور . وتحبس في المنزل « حتى يتوفاهن الموت » ان لم يبد من احداهن انها قد اقتضت بالعقوبة ، وانها استقامت ، مما يحملها مرجوة لحسن التصرف في السفور . فالحجاب عبوة حكيمة على سوء التصرف في حرية السفور . هذا في الأصل الإسلامي . ولكنه ، في التشريع الحاصر ، يمثل مصادرة مستمرة لحرية السفور ، لأن الشارع أراد به الى سد اندرمة ، حماية للقصر من مسؤولية باهظة ، وثقيلة ، لا يهمن بها المؤمنون ، واسا يهمن بها الملونون ، وما لهؤلاء شرع .

المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس اصلا في الاسلام

وما يقال عن السفور يقال عن الاختلاط ، فان الأصل في الاسلام المجتمع المختلط ، بين الرجال والنساء ، ثم هو مجتمع سليم من عيوب السلوك التي اجت بها المجتمعات المختلطة الحاضرة . هذه جميعها محرد أمثلة سيق على سبيل اظهار الفرق بين الأصل والفرع ، وللتدليل على أن الرسالة الأولى ، انما هي تنزل عن الرسالة الثانية ، لناسب الوقت ، ولتنسجوب حاجة مجتمعهم ، ولتلتطف بالضعف البشري يومئذ . وفيها في ذلك غناء .

الباب السادس

الرسالة الثانية

الرسالة الثانية هي الاسلام، وغنا جملها المعصوم اجبالا، ولم تقع في حقها التفصيل الا في الشارح المداحله بين الرساله الاولى وبها ، كشارح المبادىء ، وكشارح الحدود ، قال تعالى « اليوم اكملت لكم دينكم ، واسمت عليكم بسمي ، ورصيت لكم الاسلام ديناً » هذا اليوم يوم عرفه ، من حجة الوداع ، في السنة الثامنة من الهجرة ، وقد كان يوم الجمعة . وهذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن .. وهي قمة رسالات السماء . وهو انما رضى لنا الاسلام ديناً لرصاه ، فان امراً لا يبدأ من طرفه هو ، لا يبدأ من طرفنا نحن .. قال تعالى « ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

وقد ظن كثير من الناس ان قوله تعالى « اليوم اكملت لكم دينكم » تعني ان الاسلام كامل عند الناس ، وانهى الى قمة كماله يومئذ . وهؤلاء ، حين يقرأون قوله تعالى « وارب اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » يمتدحون ان تبين القرآن قد تم ، وليس هناك امر هو اتمد من الصواب من هذا الرأي .. فالقرآن لم يبين منه بالشرع ، وبالفهم ، الا الطرف الذي يناسب الوقت الذي جرى فيه التبيين ، ويناسب طاقة الناس .. والقرآن لا يمكن ان يتم تبينه . والاسلام ، كذلك ، لا

سكن أن يكمل • فالسير في مضماره سير سمردي «ان الدين عند الله الاسلام» و «عد» هما ، ليست ظرف زمان ، ولا هي ظرف مكان ، وإنما هي خارج الزمان ، والمكان • • قالسير بالقرآن في مضمار الاسلام سير الى الله في اطلاقه • • وهو بذلك لم يتم تبييه ، ولن يتم ، وإنما تم ازاله بين دفتي المصحف • • تم ازاله ، ولم يتم بينه • •

ومن ههنا يفهم الفرق بين «أرلنا» و «نزل» من الآية « وأرلسا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم سمكروا » فان الفهم العام ، عند العلماء ، اصلا مترادفتان ، وما هما بذلك • • و «ما» في جملة « ما نزل اليهم » لا تعود الى الذكر ، وإنما تعود الى جزء من الذكر ، ينصب عليه الأمر بالنسخ ، وهو ما يخص الرسالة الأولى • • الا ما يكون متداخلا بينها وبين الرسالة الثانية •

ويحسن أن نذكر ههنا أن القرآن قد نزل مثاني • • وفي ذلك يقول تعالى « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها ، مثاني ، تنشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن ضل الله فما له من هاد » ومعنى « متشابها » قائمة قرينة الشبه بين أسفله وأعله ، وبين وجهه وقمائه ، وبين ظاهره وباطنه • • ومعنى « مثاني » انه ذو معنيين ، معنيين • • معنى بعيد عند الرب ، ومعنى قريب تنزل للعبد • • والقرآن كله مثالي • • كل آية

منه ، وكل كلمة فيه ، بل وكل حرف من كل كلمة .. والسر في ذلك أنه حديث صادر من الرب مخاطب به العبد .. والشئ الذي فيه هو الشبه الذي قام بين الرب والعبد ، وغير عنه المعصوم بقوله « أن الله خلق آدم على صورته » وغير عنه تبارك وتعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » وتلك النفس الواحدة انما هي نفسه ، تبارك وتعالى ..

فكلمة الاسلام ، مثلا ، لها معنى قريب هو الذي عبر عنه القرآن بقوله تعالى « قالت الأعراب أما ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .. وهذا هو الذي أسمياه الاسلام الأول ، وهذا أنه لا عسرة به عند الله . وللإسلام معنى بعبء ، وهو مركز عند الله ، حيث لا حيث .. وهو بسماء البعد قد أشار إليه سبحانه وتعالى حين قال « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » . ومعلوم أنه لا يتقى الله حق تقاته الا الله ، وهو ، من ثم ، نهج معراج الى الله دى المعارج ، في مقام عزمه . «العبودية» والتذلل ، والاستسلام .. والعبودية لا تنهاه .. فهي كالربوبية تماما .. والعبودية المطلقة لله تقتضي العلم المطلق بالله . وهذا لا يكون الا الله عز وجل « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله » فالغيب هنا يعني الله .. فكانه قال ، لا يعلم الله الا الله ، ولقد تحدثنا في رسالة الصلاة

كيف لن العبودية هي الحرية ممالا سبيل الى اعادته ها ..
هل يرجع اليه .

والاسلام اما كان صج معراج الى مقام العبودية بفصل
المرآة . وهو كتابه المملوك في مراقبه . وهذا التليك هو
ما من أحله امر القرآن ، والي ذلك الاشارة بقوله تعالى « ولقد
يرى المرآة يذكر ، فهل من مدكر » . وهو اما يذكرنا
بالعبودية التي امرنا على انفسنا ، ثم نسيها ، وذلك حيث
قال تعالى ع « واد احد ربك من بنى آدم ، من ظهورهم ،
دريهم ، وأشهدهم على انفسهم ، الست بربكم ؟ قالوا بلى ا
شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين *
تقوا ، اما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا درية من بعدهم ،
امهمكنا بما فعل المبطلون * وكذلك فصل الايات ، ولهم
يرجعون » لهم يرجعون الى الله بالعبودية والاسلام ...
بالاسلام .

ولا كان القرآن هو مباح السلوك الى الله ، « قلنا اهبوا
مها جيما ، فاما ياتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوفه
عليهم ولا هم يحزنون » ، والقرآن هو هذا الهدى ، فقد
أصبح أوله عند الله ، وآخره عندنا . فان نحن احسن السلوك
في مدارجه استرجعنا الفردوس الذى فقدناه بحبيشة آدم ،
وارتقيا المراقى في الاطلاق .. قال تعالى عن القرآن « ألم *
— ١٦٥ —

ذلك الكتاب لا رب فيه ، هدى للسميع » وقال عن المتعين المهدى بالقرآن « ان المتعين في حبات ، وهر ، في معد صدى ، عند ملك مقتدر » وهذه درجاب - أولها الجباب ، ثم الهر ، ثم مقعد الصديق ثم عند ملك مقتدر ، وذلك « عند لا عند » و « حيث لا حيث » . وهذه الدرجات متفاوت من الجباب الحسية ، وهي الفردوس المنعقد بالحيطنة ، إلى المطلق في إطلاقه ، وإلى كل أولئك يهdy القرآن ، فهو لا يستعد . « هل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى لهد البحر قبل أن تعد كلمات ربى ، ولو حثا مثله مدداً » ومن أحل هذا فانه باطل ، رعم من رعم ان القرآن يمكن أن يستقصى بيه . . . ذلك بأن القرآن هو ذات الله . . . وهذه الدات نزلت ، بحصن الفصل ، إلى مدارك العباد ليعرفوها . فكان القرآن في نزلاته المختلفة الذكر ، والقرآن ، والفرقان . وفي منزلة الفرقان هذه انصب في قوالب التعبير العربية ، واستتمت هذه القوالب ابلغ استعمال تشير إلى مسرتي القرآن ، والذكر . والقرآن انما انصب في قوالب التعبير العربية لتمكين نحن من الفهم عن الله . . قال تعالى في ذلك : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ولقد ورطت هذه الآية ، واخواتها كثيرا من علماء المسلمين في الخطأ ، فظنوا ان القرآن عربى بمعنى انه يمكن ان يستقصى فهمه من اللغة العربية ، ومن معرفة أساليبها ، وما هو بذلك ، ولقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن السور المفتحة

بأحرف التهجي ، فليراجع هناك .

ولما كان الاسلام بهذا السوق ، فانه لم يتفق لأمة من الأمم الى اليوم . والأمة المسلمة لم تظهر بمد . وهى مرجوة الظهور فى مقبل أيام البشرية . وسيكون يوم ظهورها يوم الحج الأكبر ، وهو اليوم الذى يتم فيه تحقيق الخطاب الرحمانى بقوله تعالى : « الصوم اكمل لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

ولقد كان محمد يومئذ طليعة المسلمين المبلى ، وهو كما جاء لأمنه ، أمة المؤمنين ، من المستقبل ، فهو لم يكن منهم ، فقد كان المسلم الوحيد بهم « قل ان صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين » لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين « . ولقد كان أبو بكر ، وهو ثانى اثنين ، طليعة المؤمنين . وكان يبه وبى البى أمد بعيد . والى المسلمين ، الذين يحيون فى مقبل أيام البشرية ، انظر حديث المعصوم ، حين قال . « واشوقاه لأخوانى الدين لما يأتوا بعد ا » فقال أبو بكر « أولسا اخوانك يا رسول الله ؟ » قال « بل انتم اصحابى ا » ثم قال ثانية : « واشوقاه لأخوانى الدين لما يأتوا بعد ا » فقال أبو بكر : « أولسا اخوانك يا رسول الله ؟ » قال « بل انتم اصحابى ا » ثم قال ثالثة : « واشوقاه لأخوانى

الذين لما يأتوا بعد ا « قالوا » من احوانك يا رسول الله ؟ «
قال « فبوم يجيئون في آحر الزمان ، للعامل منهم اجر سبعين
منكم » قالوا « منا أم منهم ؟ » قال « بل منكم » قالوا « لمادا؟ »
قال « لانكم تحدون على الحير اعوانا ولا يجدون على الحير
اعوانا » .

المسلمون

المسلمون كلمة لم يجيئوا بعد ، ولقد تبأ المصوم
بمجيئهم في آخر الزمان ، وذلك حين يبلغ الكتاب أجله ، ويجيئ
موعود الله تعالى في قوله « ومن ينسج غير الاسلام دينا فلن يقبل
منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » ويومئذ يدخل الناس في الدين
كافة ، ولا يجدون عسى ذلك منصرفا ، لأن جميع المشاكل لا
تحد حلها الا فيه . وما رى الا ان الارض اخدت تنها لظهور
شرعة المسلمين التي بها تكون المدينة الحديدية ، وما يدون
المدينة الحديدية للناس خلاص من افلاس النظم الاحتشاعية
المعاصرة . . وذلك أمر سلفت الاشارة اليه في صدر هذه الرسالة ،
حيث قلنا ان الاسانية كلها ، في هذه الآونة ، في التيه ، وقد
ضل سبي المدينة الغربية ، واستعلن افلاسها ، وأصبحت
قضايا الديمقراطية ، والاشتراكية ، والحرية الفردية ، تتطلب
الطول ، وتلح في الطلب ، ولا يجيئ الحل الا من تلقب
المدينة الغربية . أو قل ، ان أردت الدقة ، الحضارة الغربية

— بروح جديد ، هو روح الاسلام ، واما رشح الاسلام بهذا المقام معدته على حل الاشكال القائم بين الفرد والجماعة ، وبين الفرد والكون . وهو أمر أسلمنا في تفصيله القول .

وما ينبغي أن يلتبس اسم المسلمين المسمى ها ، مع الاسم التليدي الذي تسمى به الأمة المعاصرة . فاننا قد أسلمنا القول بأها لم تسم بهذا الاسم الا من الاسلام الأول ، والا فهي الأمة المؤمة . فما من أمة من الأمم السوالف تستحق هذا الاسم . وكل ما ذكر عن الأمم من اسلام فأما هو الاسلام الأول . الا ما كان من أمر طلائع الشريعة ، فانه الاسلام الأخير ، أو قل هو درجة في الاسلام الأخير ، فما للاسلام الأخير عية هبلع . وهم بذلك طلائع الأمة المسلمة التي لم تجيء الى اليوم . . قال تعالى في ذلك . . « وادبر مع ابراهيم القواعد من البيت ، واسماعيل ، ربا قبل ما افك أب السميع العظيم * ربا واجعلنا مسلمين لك ، ومن دبرتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا ما سكتنا ، وثب علينا ، انك أنت الوهاب الرحيم * ربا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، ويزكهم ، انك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وانه في الآخرة لمن الصالحين * اذ قال له ربه اسلم ، قال أسلمت لرب

العالين * ووصى بها ابراهيم بيه ، ويعقوب ، يا بى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تمونن الا وانتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت - إذ قال لبيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آباءك ، ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، انها واحدا ، ونحن له مسلمون . . . فوله « يا واحدا مسلمين لك » يعنى الاسلام الأخير ، وقد كانا مسلمين من ذلك الطراز . وأما قوله « ومن دينا أمة مسلمة لك » فانه يعنى ، فى المدى القريب ، أمة مسلمة على مستوى الاسلام الأول ، ثم يتداعى بها الترقى ، والطور حتى تبعد ، فى المدى البعيد ، مراعى الاسلام الأخير . وقد استحب لهذا فى ذلك . قوله « ووصى بها ابراهيم بيه » يعنى وصاهم بالكلمة وهى « لا اله الا الله » وكذلك وصاهم يعقوب . « يا بى ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تمونن الا وانتم مسلمون » يعنى فلا تمونن الا وانتم متمسكون بالملة ، والكلمة ، « لا اله الا الله » . . . وقوله « قالوا نعبد الهك ، واله آباءك ، ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، انها واحدا ، ونحن له مسلمون » يعنى أيضا الاسلام الأول .

وقال تعالى فى ذلك « ولذا وحيت الى الحوارين ان آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا أوأشهد بأننا مسلمون . » فاسلامهم هنا مطابق للايمان ، وهو ما وقع به الأدن بالوحى .

عَنْ اللَّهِ أَنَّمَا أَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا .. فَلَمَّا آمَنُوا وَقَالُوا
« آمَنَّا » وَقَعَ لَهُمْ أَنْ هَذَا الْإِيمَانُ أَسْلَامٌ وَكَذَلِكَ قَالُوا « وَاشْهَد
يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ » وَالْعَارِفُ بِسَمْعِ آدَابِهِ الْقُدُسِ أَيُّهُمْ فِي مَحْوَى .
« قُلْ لَمْ تَسْلِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا » . لَمْ يَسْلِمُوا الْأَسْلَامَ
الْأَخِيرَ .. أَعْنَى دَرَجَةِ الْبِدَايَةِ .. وَأَمَّا أَسْلَمُوا الْأَسْلَامَ
الْأَوَّلَ .

وَبَعَثَ أَنَّمَا خَزَمًا بِأَنَّ أَسْلَامَ كُلِّ هَؤُلَاءِ هُوَ الْأَسْلَامُ
الْأَوَّلَ لِأَنَّهُ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْأَسْلَامِ الْأَخِيرِ الْخُرُوجِ عَنِ الشَّرِيعَةِ
الْجَمَاعِيَّةِ وَالْدُخُولِ فِي الشَّرِيعَةِ الْفَرْدِيَّةِ ، وَذَلِكَ بِاتِّقَانِ الْعَمَلِ
بِالشَّرِيعَةِ الْجَمَاعِيَّةِ حَتَّى يَخْصِيَ الْفَرْدُ التَّصَرُّفَ فِي الْحُرِّيَةِ الْفَرْدِيَّةِ
الْمُطْلَقَةِ . فَالْأَسْلَامُ الْأَخِيرُ مَرْتَبَةُ فَرْدِيَّاتٍ .. وَالْفَرْدِيَّةُ لَا تَحَقِّقُ
لِأَحَدٍ وَهُوَ مُقْسَمٌ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَا يَبْدُ لَهُ مِنْ إِعَادَةِ الْوَحْدَةِ إِلَى
بَيْتِهِ ، فَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ الْوَاعِي فِي تَعَارُضٍ وَتَضَادٍّ مَعَ الْعَقْلِ
الْدَاخِلِ ، وَبَعْضُ الْعَارِضِ يَسْهَمُ فِي سَلَامَةِ الْقَلْبِ ، وَصَفَاءِ
الْفِكْرِ ، وَحَمَالِ الْجِسْمِ ، فَتَحَقِّقُ حَيَاةَ الْفِكْرِ ، وَحَيَاةَ الشُّعُورِ ..
وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْعُلْيَا .. « وَأَنَّ السُّلْكَ الْآخِرَ لَهُ الْخِيَانَةُ لَوِ
كَانُوا يَسْلِمُونَ » فَالْخِيَانَةُ هُنَا ضِدُّ الْمَوْتَانِ ، وَهِيَ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ ،
غَيْرُ الْمَوْفُوقَةِ بِالنَّفْسِ ، وَلَا بِالْمَرَضِ ، وَلَا بِالْمَوْتِ .

وَإِعَادَةُ الْوَحْدَةِ إِلَى النِّيَّةِ تَمْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَفْكَرُ كَمَا يَرِيدُ ،
وَيَقُولُ كَمَا يَفْكَرُ ، وَيَعْمَلُ كَمَا يَقُولُ .. وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ

الاسلام ، وذلك حيث يقول « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تعملون ؟ » كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تعملون . »

المجتمع الصالح

ولا يبلغ أحد هذا المبلغ الرفيع من الحياة الا بوسيلتين اثنتين : اولاهما وسيلة المجتمع الصالح ، وثانيتهما المنهاج التربوي العلمي الذي يواصل به مجهوده الفردي ليتم له تحرير مواهبه الطبيعية من الخوف الموروث .

والمجتمع الصالح هو المجتمع الذي يقوم على ثلاث مساويات : المساواة الاقتصادية ، وتسمى في المجتمع الحديث الاشتراكية ، وتسمى أن يكون الناس شركاء في حيرات الأرض . والمساواة السياسية ، وتسمى في المجتمع الحديث الديمقراطية ، وتعني أن يكون الناس شركاء في تولى السلطة التي تقوم على تنفيذ مطالب حياتهم اليومية . ثم المساواة الاجتماعية ، وهذه ، الى حد ما ، نتيجة للمساويين السابقتين ، ومظهرها الحلوى محو الطبقات ، وانقراض الفوارق التي تقوم على اللون ، أو العقيدة ، أو العنصر ، أو الجنس ، من رجل ، وامرأة . فإنه يجب ألا يكون هناك تمييز بين الأفراد يقوم على أى اعتبار من هذه الاعتبارات . فأناس لا يفاضلون الا بالعقل ، والحلق . ومحكم ذلك المدل في البيرة بين الناس ، والنصح ، والأخلاص للمواطنين .

في السر والعلى ، وروح الخدمة العامة ، في كل وقت ، وبكل
سبيل .

والمساواة الاجتماعية تستهدف نحو الطبقات ، ومحو
القوارق بين المدن والأرياف ، وذلك بآتاحة القرض المتساوية
للتثقيف ، والنمدين ، حتى يكون التساوي بين جميع الأفراد في
المجتمع أمرا عاديا . . وهذا هو المحك الصادق في مبلغ المساواة
الاجتماعية . .

والمجتمع الصالح ، بعد أن يهوم على هذه المساويات الثلاث ،
التي يكفل القانون تنظيمها ، ورعايتها ، يهزم أيضا على رأى
عام سمح لا يقيق بأنماط السلوك المختلفة ، لدى النماذج
الشرية المتباينة ، ما دام هذا السلوك لا يعود الا بأخير
والبركة على المجتمع .

وللرأى العام أحكام تصدر من وراء حكم القانون ، وهي
غير ملزمة لأحد ، ولا مفعلة بسلطة ، ولكنها قد تكون ، مع
ذلك ، أكثر فعالية من القانون ، في ردع الشواذ والمارقين .
ويمكن للرأى العام بالطبع ، أن يصدر حكمه على أى سلوك لا
يوافق عليه ، ولكن يجب العف في أحداث أى
تصير في ذلك ، فإن العف لا يبعث الا إحدى حصلتين : أما
العف من يطبقون المقاومة ، أو النفاق من العاجزين عنها ،
وليس في أيهما خير . . ثم ، لدى الضرورة ، يمكن لأحكام الرأى

العام ، والعرف الجماعي ، ان تدخل حرم القانون ، وذلك باقتراح التشريع التي تصادفها الذي بدأ من شاء ، وبالطبع لن تكون التشريعات غير دستورية ، ودستورية القانون مدقة معروفة ..

المساواة الاقتصادية : الاشتراكية

ليس هذا المقام مقام التفصيل في امر الاشتراكية ، فان لها سمرا سيخرج الناس قريبا ، ان شاء الله ، باسم « الاسلام ديمقراطي اشتراكي » .

والاشتراكية بمعنى ان يكون الناس شركاء في حيرات الارض ، وهي قد بدأت منذ ان بدأ المجتمع ، فانها صو الرأسمالية . وكانت الرأسمالية ، مثله في الملكية ، هي النظام الذي نشأ عليه المجتمع ، ولقد تطورت الرأسمالية الى ان وصلت معها العلمي الحاضر ، وكذلك تطورت الاشتراكية ، وانما كان تطورها ابداً من تطور الرأسمالية لان الرأسمالية تعتبر مقدمه طبيعيه لها ، ولا يمكن الاشتراكية ان تسبق الرأسمالية . ثم ان الاشتراكية تتيحه حكم القانون الذي يرعى حق الضعيف ، في حين ان الرأسمالية نتيجة قانون العادة الذي يطي الحق للأغنياء ، ويتقاصد لهم ، وبطبيعة النشأ ، فان قانون العادة مرحلة سابقة لمرحلة قانون العدل ، والمرحلة ..

ولقد ظهرت الاشتراكية في جراثيمها البدائية في صورة الحسد ، أو العبطة التي تعتمل في صدر « الماعذهم ضد

المدهم » . فقد كان محسودا الذي يوفق الى سلاح حجري
ساز بالحمة ، والقوة ، والعدة ، والذي يوفق الى كهف حصين ،
وسيح ، والذي يوفق الى زوحة حميلة ، ومحة ، ومطبعة ، وقوية ،
وهكذا . ولقد دفع هذا الحد الى الصراع التاريخي بين
«المعندهم والعندهم» . ولا يزال هذا الصراع محتتما ، ولن
يفك ، حتى تتم المساواة المطلقة بين الناس في حيرات الارض ..

وقبل أن تظهر الاشتراكية العلمية نتيجة لهذا الصراع
الدائر المرر كات الاشتراكية في مرحلتها البدائية ، وهذه تعني
المشاركة في الحيرات التي لا تصيق بأحد ، ولا يقع عليها
الحوز . ولقد عر المعصوم عن هذه حين قال « الناس شركاء
في ثلاثة الماء والكلا والبار » . وفي هذا الحديث اشارة رصبة
الى وحوب الاشتراكية بين الناس حين يمكن أن تفيض الحيرات
بإستغلال الموارد الطبيعية والصناعية .

وانما دخلت الاشتراكية في الطور العلمي مؤحرا ، وبرزت ،
واستحوذت على اهتمام الناس ، واصحت في أياما هذه يدعيها
الدين بموئها ، والدين لا يموئها ، وذلك لفرط تعلق
الشعوب بها .

ولقد بدأ في أوائل القرن التاسع عشر استخدام اصطلاحي
«لاشترائية» و « الشيوعية » في كل ما له صلة بفكرة الملكية
العامة للعقار .. وقد اسخدم اصطلاح « الاشتراكية » في

انجلترا في حوالي عام ١٨٢٠ ، ولأول مرة ، بواسطة روبرت أوين ، وهو صانع نري ، ويسمى مؤسس الاشتراكية الحديثة .
ولقد كان يؤمن بإمكان تحقيق التحسين الاجتماعى عن طريق الوسائل الاحتيارية ، والدستورية الوثيدة ، والمستقرة ، التى تجنب الشعوب الشرور التى تسير فى ركاب التغيرات الثورية العنيفة ، وبخاصة السبىة الاعداد منها ،

وكلمة « الشيوعية » مشتقة من كلمة لاتينية معناها « عام » أو « ملوك للجميع » . ولقد استخدمت في أول الأمر حوالي عام ١٨٣٥ بواسطة الحميات الثورية الربية الفرنسية التى كانت ترمى الى قلب الطبقة الوسطى بالمص ، ثم السيطرة على فرنسا ، بهدف انشاء اقتصاد يكون فيه جميع المانع المنح مملوكا للشعب ، وتكون فيه طبقة المص هى العنصر الحاكم .
ودخل كارل ماركس فى الصورة ، وأحد يدرس ويرصد ويطور أفكاره على أساس النظريات ، والنظريات الاشتراكية ، والشيوعية المختلفة ، ولندفصل اصطلاح « الشيوعية » ، فاختاره ليصف به أفكاره ، لأن هذا الاصطلاح كان مرتبطا بفكرة تسمى المجتمع بالمص . وكان ماركس يقيم مذهبه على أربعة مبادئ : -

١ - مجرى التاريخ تتحكم فيه القوى الاقتصادية .

٢ - التاريخ ما هو الا سجل لحرب الطبقات .

٣ - الحكومة ما هي الاداء تستخدمها طبقه في اضهاد طبقه أخرى .

٤ - الحب والقوة هما الويلتان الوحيدتان لتحقيق أي تغيير أساسي في المجتمع .

وعلى هذه المادى ، ووفاء بها ، ظل ماركس ، منذ كتاباته الأولى ، يهاجم بالحاح التجارب الاشتراكية ، كالتى كان يراها روبرت أوين ، ويصمها بأصابع عليه ، وغير واقعية ، لأن التاريخ ، كما هو واضح في رأيه ، قد سار على فوائى عليه قاسيه ، وأن تعميما اجتماعيا جوهريا بغير طريق القوة والنفذ لا يمكن أن يتم . ولهذا فقد سحر باعتقاد أوين وغيره من الاشتراكيين بإمكان اصلاح اجتماعى عن طريق الرمالة ، والناون ، والتطور الوئيد . وكان يسمى عليهم هذا الاشتراكية « اثلى » ويهتم كثيرا بالنعريق بينها وبين مذهب هو ، ويسميه الاشتراكيه « العلميه » أو « الشيوعيه » . ونحن عندما نتحدث عن الاشتراكية العلميه ، أو عن الشيوعيه ، فيما ندعو اليه ، لا نزيد مذهب ماركس هذا ، بل اننا لنعلم ان اشتراكية ماركس ليست علميه ، وانما هى متورطه في خطأ أساسى ، ليس هذا المقام مقام الحوض فيه ، وانما يحوض في تبيان عد الكتابه عن « الاسلام ديمقراطى اشتراكى » الذى سيصدر عما قريب ان شاء الله .

فالاشرافية العلمية ، عدها ، تقوم على دعامتي اثنين ،
 وفي آن واحد : أولاها زيادة الانتاج ، من مصادر الانتاج ،
 وهي المعدن ، والزراعة ، والصناعة ، والحيوان ، وذلك
 باستخدام الآلة ، والمعلم ، وبجهد الجبرة الادلبيه ،
 والفقيه . وثانيتهما عدايه التوزيع ، وهي تقى ، في مرحله
 الاشرافية ، ان يكون هالك حدا على لدخول الافراد ، وحد
 ادنى . على ان يكون الحد الادنى مكفولا لجميع المواطنين ،
 بما في ذلك الاطفال ، والمعاقرين ، والمساكين عن الانتاج ، وعلى
 ان يكون كافيا ليعيش المواطن في متواء معينه تحفظ عليه
 كرامته الشرعيه واما الحد الاعلى للدخول فيشترط فيه
 الا يكون اكبر من الحد الادنى بأصناف كثيرة حتى لا يحق
 طبقة عليا تستكشف أن تتراوح مع الطبقة ذات الدخول الدنيا .
 ومرأجل زيادة الانتاج وجب تحريم ملكية مصادر الانتاج ، ووسائل
 الانتاج ، على الفرد الواحد ، أو الافراد القلائل في صورة شركة ، سواء
 كانت شركة انتاج ، أو شركة توزيع ولا يحل المواطن أن
 يملك ، ملكا فرديا ، الا المنزل ، والحديقة حوله ، والاثاث
 داخله ، والسيارة ، وما الى ذلك مما لا يتعدى الى استخدام
 مواطن استخداما يستغل فيه عرقه لزيادة دخل مواطن آخر .
 والملكية الفردية ، حتى في هذه الحدود الضيقة ، يجب ألا تكون
 ملكية عين للأشياء المملوكة ، وانما هي ملكية ارتفاق بها .
 وتظل عينها مملوكة لله ثم للجماعة بأسرها .

ثم انه كلما زاد الاتساع من مصادر الانتاج اتجهت ندالة التوزيع الى الاتقان ، وتقريب الفوارق ، وذلك برفع الحد الأدنى ، و برفع الحد الأعلى ، على السواء . ولكن رفع الحد الأدنى يكون بـ اكتمال من رفع الحد الأعلى ، وذلك بغية تحقيق المساواة المطلقة . وعند تمام المساواة المطلقة يعصل الله ، ثم يعصل ورة الانتاج ، تحدى الشيوعية ، وهي تعنى شيوع حيرات الأرض بين الناس . فالشيوعية اذما تختلف عن الاشتراكية اختلاف مقدار . . فكان الاشتراكية اتمهاى طور مرحلى نحو الشيوعية .

ولقد عبّأ ابن المعمور الشيوعية في قممها حين كانت شرسه في مستوى آية الزكاة الكبرى « يسألونك ماذا ينفقون قل النفو » واتقد فسر المعصوم ما يريد عن الحاجة محصورة . وحدثنه عن الأشرعيين في مستوى الشيوعية ، وذلك حين قال « كان الأشرعيون اذا املقوا ، أو كانوا على سفر ، فرشوا ثوبا ، فوصموا عليه ما عندهم من زاد ، فاقسموه بالسوية ، أولئك قوم أما مهم وهم من » وهذا هو فهم الأمة المسلمة التي لما تجيئ بعد . . ولقد أدرك هذا الفهم أصحابنا الصوفية وذلك حين تصوروا جمع الأرض ، وما عليها من حيرات ، كمائدة أنزلها الله على عباده ، وأمرهم أن يرتفقوا بها براد المسافر ، وبواصلوا معهم الله . . فهذه الأرض ، مثلها

عندهم مثل المائدة ، وصعد للأكليين ، وعليها اللحم ، واحبر ،
والحصار ، والخلوى ، وجلس اليها عشرة رجال ، فان كل ما
عليها هو على الشيوع بينهم ، ولا تقع لك الملكية الفردية لقطعة
لحم منها ، الا حين تنحصر اصابك ، وتبدأ رحلتها الى عمك .

وحين يحدثنا القرآن عن الجنة « وقالوا الحمد لله الذي
صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، تسوا من الجنة حيث نشاء ، فمع
أجر العاملين » اما على ايضا المودج المصغر للجنة الكبرى .
الذي يتحقق في هذه الأرض التي يعيش عليها اليوم وذلك حين
« تملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » على حد التعبير النبوي
الكريم . وهو ما داع خيال ماركس وصل الطريق اليه كل
الصلال ، ولن يلفه الا المسلمون الذين لما يأتوا سعد
يأتون سيتحقق في الأرض طرف من قوله تعالى « ان المتقين في
جنت و عيون * أدخلوها بسلام آمين * ورعنا ما في صدورهم
من عل ، أحوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب
وما هم فيها بمحرجين » وهذا الطرف هو الشيوعية التي يجمعها
الاسلام بحى . أمة المسلمين ، ويومئذ تشرق الأرض نور ربها ،
وتتم نعمة الله على سكانها ، ويحل في ربوعها السلام ، وتضم
المحبة .

المساواة السياسية : الديمقراطية

ولن نتحدث عن الديمقراطية بتطويل هنا ، فان موعدنا
بذلك السر الذي سيخرج باسم « الاسلام ديمقراطي اشتراكي »

فكما ان الاشتراكية هي ثمرة الصراع الطويل بين « العدم »
والما عندهم « في الصعيد المادى ، فان الديمقراطية هي ايضا
نتيجة الصراع بين « العدم والما عندهم » في الصعيد
السياسى ، وهى ستمضى أن يكون الناس شركاء في السلطة ، كما هم
شركاء في حيايات الارض . والديمقراطية صنو الاشتراكية .
وهما معا يمثلان حاجى المجتمع . . فكما أن الطائر لا يستقل فى الهواء
على جناح واحد ، فكذلك المجتمع ، لا يعمل سيرا حيايين من
ديمقراطية واشراكية . ولقد ظهرت الديمقراطية قبل الاشتراكية ،
ذلك لأن الاشتراكية تحتاج الى وعى جماعى أكثر مما تحتاجه
الديمقراطية التى قد تقوم فى ندائها على قلبه من المثقفين . .
ثم ان الاشتراكية تحتاج ، كمقدمة لها ، الى الرأسمالية النامية
عليه . . وهى ايضا وليدة الآلة ، فلم يكن من الممكن أن
تتقدمها . . ولم تجيء الآلة الا مؤخرًا . . هذا الحديث يعنى
الاشتراكية العلمية . . أما الاشتراكية الساذجة ، البدائية ،
فإن نشأتها بعيدة فى التاريخ . .

ولدت الديمقراطية فى بلاد الاعريق ، وفى أثينا بائدات . . وقد
كانت أثينا أرقى مدن الاعريق ثقافة . . وكانت كل
مدينة من تلك المدن حكومة قائمة بذاتها . . ولما كانت الدول
الاغريقية التى تمثلها المدن صغيرة فقد كان من السهل على
الشعب أن يمارس الحكم مباشرة عن طريق اجتماع أفرادها ، وكانت
ديمقراطيتهم بذلك الديمقراطية المباشرة التى لا تحتاج الى مجلس

ديامي ، ولا الى مجلس سعيدي ، على النحو الذي عرف مؤجرا ،
وهي تم تكن تقوم على موظفين دائمين ، وانما كان الموظفون
يسحبون كل عام ٥٠ وكثيرا ما كان الاسحب يجري بالافترع ،
وكان أهل اثينا يعتقدون ان الاسرائل في مافشه ، وسياسه
النشون العامة ، حق لكل مواطن ، ووجد عليه ، (لم يكونوا
يميزون النساء والعييد من المواطنين) ، وكان يرتديس
اعظم اعطاء المتكلمين باسم الديمقراطية الاثنيه ، وفي
خطابه المعروف باسم خطبة الجبارة ، انتى انها في
سابق الاحتمال الشعبي بدع الدين فليسوا في الحرب ضد
اسباطه عام ٤٣٠ قبل الميلاد ، قال في تصوير هذه الديمقراطية
« اما نسي حكومتنا ديمقراطية لاها في ايدي الكثرة دون ائمة
وان قوانينا لتكمل المساواة في العدالة للجميع ، في مشارعاتهم
الخاصة ، كما ان الرأي العام عدنا يرحب بالموهبة ويكرمها
في كل عمل يتحقق ، لا لاي سب طائفي ، ولكن على أسس
من النعوق فحسب ، ثم أنا تسج فرصة مطلقة للجميع في حياتنا
العامة ، فحق نصل بالروح ذاتها في علاقاتنا اليومية فيما بينا .
ولا يوغرنا ضد جارتنا ان يعمل ما يعمل له ولا توجه اليه
تفترات محقة ، قد لا تضطر ، ولكنها غير مستحبة » .
« ونحس نلزم حدودا لقانون أشد الرام في تصرفاتنا
العامة ، وان كنا صرحاء ووديين في علاقاتنا الخاصة . فحق نترك
قيود التوقيير : نطيع رجال الحكم والقوانين ، لا سيما تلك

القوانين التي تحمي المظلوم . والقوانين غير المكتوبة التي يحل انتهاكها عارا غير مكور . ومع ذلك فإن مديتنا لا تعرض على العمل وحده طيلة اليوم . وما من مدينة أخرى توفر ما توفره من أسباب الترويح للنفس - من مباريات وقرابين على مدار السنة ، ومن جمال في شتا العامة ، يشرح الصدر ، وير العيون ، يوما بعد يوم ، وفوق هذا فإن هذه المدينة من الكبر والقوة بحيث تدفق عليها ثروة العالم بأسره ، ومن ثم فإن متحانات المحلية لم تعد مألوفة لدينا أكثر من منحآت الدول الأخرى . »

« أنا نحب العمال دون اسراف ، والحكمة في غير تجرد من الشجاعة والشهامة ، ونحن نخدم الثروة ، لا كوسيلة لمرور والمباهاة ، وإنما كقرصة لأداء الخدمات . وليس الاعتراف بالفقر عيبا ، إنما العيب هو القعود عن أي جهد للتعب عليه . »

« وما من مواطن أثني به على الشئون العامة لأغراقه في الانصراف الى شئونه الخاصة . والشخص الذي لا يمسى «لشئون العامة لا تعتبره » هادئا وادعا » وإنما نعتبره غير ذي فصح . »

« وإذا كانت قلة من هم الذين يرسمون أية سياسة ، فأنا جبيما قصاة صالحوون للحكم على هذه السياسة . وفي رأينا أن أكبر معوق للعمل ، هو قصص المعلومات الواقية - التي تكتسب من النقاش قبل الاقدام - وليس النقاش ذاته . » هذا ما قاله

يركّز في تصوير الديمقراطية الأثنية وهو تصوير طيب ..
ولقد أحدثت الديمقراطية من أيام أيا تمو وتطور وتساير في
ذلك في مختلف أرجاء العالم، ولكنها تباع في كل مكان من
مبادئ تحاول أن تبينها بوصف كنهج متميز وفرد من مناهج
الحياة .. نهج للحياة يتصرف بكرامة الإنسان ، ويحاول أن
يقسم تصرف الشؤون الإنسانية وفق العدل ، والحق ، وقبول
الشعب .. ولقد وصلت مرحلة تطوير الديمقراطية الحديثة
إلى مبادئ يمكن تلخيص أهمها فيما يلي : —

- ١ — الاعتراف بالمساواة الأساسية بين الناس •
- ٢ — قيمة الفرد فوق قيمة الدولة •
- ٣ — الحكومة خادمة الشعب •
- ٤ — حكم القانون •
- ٥ — الاسترشاد بالعقل ، والتجربة ، والخبرة •
- ٦ — حكم الأغلبية ، مع تقديس حقوق الأقلية •
- ٧ — الاجراءات أو الوسائل الديمقراطية تستخدم لتحقيق
الغايات في الدولة الديمقراطية •

فليست الاجراءات ولا الأجهزة الديمقراطية غاية في
ذاتها ، وإنما هي وسيلة الى غاية وراءها .. فليست الديمقراطية

أن تكون لنا هيئة تشريعية ، وهيئة تنفيذية ، وهيئة قضائية ،
واما جميع أولئك وسائل لتحقيق كرامة الانسان .. فان
الديمقراطية ليست أسلوب حكم فحسب ، وانما هي منهاج حياة ،
انفرد البشر فيه غاية ، وكل ما عداه وسيلة اليه ، ولا يحدد
أسلوب الحكم الديمقراطية الكرامة التي يجدها عند الناس
الا من كونه أمثل أسلوب لتحقيق كرامة الانسان .

وفي النهج الديمقراطي العاصر خطأ هو أقل من الخطأ الذي
تورط فيه الشيوعية الماركسية بكثير ، ولكنا رغم ذلك لن
سنرسل في استقصائه ها واما تركه الى حينه في سفر «الاسلام
ديمقراطي اشتراكي» .

واما تحية كرامة الانسان من كونه أقدر الأحياء على التعلم
والرقي ، واما تحية كرامة الديمقراطية من كونها ، كأسلوب
لحكم ، أقدر الأساليب لأناحة القصر للانسان ليلعب مسار
كرامته وشره ، واما يتعلم الانسان من أخطائه ، وتلك هي
الطريقة المثلى للتعليم .. ففي الدكتاتورية تمنع الحكومة الفرد
من أن يجرب ، أو يعمل بنفسه ، وبذلك تمنع نمو الفكر
والمطى والخلقى ، لأن كل أولئك انما يتوقف نموه على
ممارسة العمل ، وتحمل مسؤولية الخطأ في القول ، وفي العمل ، ثم
التعلم من الخطأ .. وعلى العكس من الدكتاتورية ، نجد أن
الديمقراطية قائمة على الحق في ارتكاب الأخطاء ، وهذا ليس

معناه الرغبة في الخطأ من أجل الخطأ ، وأما اعترافا بأن الحرية
توجب الاختيار بين السبل المختلفة للمعلل . ولا يمكن
للإنسان أن يكون ديمقراطيا حقا دون أن يتعلم كيف
يختار ، وأن يحسن الاختيار في ذلك ، ولا يصحح ، باستمرار ،
خطأ الاختيار الذي يبدو منه الغيه بعد الفيه . وفي واقع الأمر
فإن السلوك جميعه ، وممارسة الحرية برمتها ، إنما هي سلسلة
من التصرف الفردي في الاختيار والتفكير . . أو قل في حرية
الفكر ، وحرية القول ، وحرية العمل . . على شرط واحد هو
أن الإنسان يتحمل نتيجة خطئه في القول . وفي العمل ، وفق
قانون دستوري .

«الديمقراطية هي حق الخطأ . . وفي فيه هذا السرط حبه
حديث المعصوم » أن لم يخطئوا واستمعوا مبادئ الله يوم
يخطئون ويستعفرون فيعفر لهم .»

ومن كرامة الإنسان عند الله أن الحرية الفردية لم يجعل
عليها وصيا ، حتى ولو كان هذا الوصي هو النبي على ربه . حده
وكمال سبحانه . فقد قال تعالى في ذلك «مذكر إنما أنت مذكر *
لست عليهم بمسيطر» ، والمسيون هنا هم المشركون ، الذين رفضوا
عبادة الله ، وعكفوا على الأصنام ، يمدحها ، ويتقربون إليها
بالترايين ، والمهي عن السيطرة عليهم هو الرسول محمد ، الذي

لم يرد علواً في الأرض ، والذي قال تعالى عنه « وانك لعلى خلق عظيم » .. من هذا فأحد أنه ليس هناك رجل هو من الكمال بحيث يؤنس على حريات الآخرين . ولأن ثمن الحرية الفردية هو دوام السهر الفردى عليها .. وفي الحق ان الحرية الفردية حق أساسى يقابله واجب هو حسن الصرف فى ممارستها . ولما كان مجتمع المؤمنين قاصراً عن الارتفاع الى ممارسة الحرية الفردية فى الاختيار والعمل فقد حمل النبى وصياً عليهم ليمدهم بحمل مسئولية الحرية الفردية المطلقة ، وهو أثناء وصايته عليهم يصر على اعطائهم حق الخطأ ، كلما وسعه ذلك ، من غير أن يشق عليهم أو يعتهم .. فهو بذلك انما يمدهم لممارسة الديمقراطية حين يقوى عودهم ، ويستحصد عقولهم .. وبذلك امر الله حين قال « فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزممت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .

وهذه آية الثورى ، والثورى بحيث وردت ، سواء فى هذه الآية . أو فى قوله تعالى « والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، وما رزقناهم ينفقون » . فليست آية ديمقراطية ، وانما هى آية تنزلت من آية الديمقراطية لتمد الناس ليشأهوا الديمقراطية ، حين يجيء أوانها ..

فالشورى ليست أصلاً ، وإنما هي فرع ، وهي ليست
ديمقراطية ، وإنما هي حكم الفرد الرشيد الذي يعد الأمة لتصبح
ديمقراطية .. والأصل في الديمقراطية آيتا « فذكر إنما
أنت مذكر » لست عليهم بمسيطر »

وبمعنى هذا القدر ، الزكاة ذات المقادير ليست اشتراكية ، وإنما
هي رأسمالية .. وآيتها « حرم أموالهم صدقة تطهرهم ،
وتركيهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم » ليست أصلاً ،
وإنما هي فرع . والعرض ورامها أعداد الناس ضحياً ، ومادياً
ليكونوا اشتراكين ، حين يجيء . وإن الاشتراكية .. والآية
الأصل ، التي تنزلت منها آية الزكاة ذات المقادير ، هي قوله
تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل المعو » وقد أسلفنا الإشارة
إلى ذلك .

ولما كانت الرسالة الثانية تقوم على الارتفاع من الآيات
الفرعية إلى الآيات التي هي أصل ، والتي حرم منها التزل إلى
الفروع لللبسة الزمان ، وللملاءمة طاقه المجتمع ، المادية ، والبشرية ،
فقد وجب الارتفاع بالتشريع ، وذلك بتطويره ليقوم على آيات
الأصول ، وكذلك يدخل عهد الاشتراكية ، وعهد الديمقراطية .
ويفتح الطريق إلى تحقيق الحرية الفردية المطلقة بالممارسة في
مستوى العبادة ، ومستوى المعاملة . وهذه هي شريعة
المسلمين .. شريعة الأمة المسلمة التي لما قامت بعد ، وقد أصبحت
الأرض تهيأ لحبيتها .. فملى أهل القرآن أن يهدوا طرقهم ،

وأن يجعلوا مجيئهم ممكنا ، وميرا ، وهذا ما من أجله
كتب هذا الكتاب .

المساواة الاجتماعية : نحو الطبقات والفوارق

هذه أصعب المساويات تحقيقا ، وتعتبر المساواة
الاقتصادية ، والمساواة السياسية مقدمة لها ، وهي تتويج لها ،
وحلاصة ، وقمة .

وهي لم تتحقق للإنسانية الى يوم الناس هذا ، ولي تتحقق
في المستقبل الا بالعهد الشاق ، والتربية ، والتعليم ، لتصحيح ،
وتغيير ما هو كالطبيعي في الملك الانساني . وهي بذلك أرفى
انساج المدنية في جميع العصور . إذ المدنية لأن هي الا محاولة
تبعد الانسان عن رعاياه الحيوانية الدنيئة ، وتقوده الى مستوى
أعلى من الخلق ، حيث يتبدل قانون الغابة - قانون السم ،
والبطش بالقوة - بقانون العدل ، والحق ، والرحمة -
فيدخل بذلك السجين في نوع العلاقات البشرية ، فيحل الرضا
محل القوة ، والعدالة محل الاستغلال ، والحرية محل
الكبت ، والمناطفة المتمايزة بالعقل القوي ، محل المناطفة
المتضاربة .

وشأننا مع هذه المساواة في هذا الكتاب شأننا مع سابقتها
وهو ارجاء الاستقصاء الى مواعده من كتاب « الاسلام ديمقراطي
لمشركي » حيث نبحثها بحثا مستفيضا ولكن لا بد من الاشارة

اليها هنا بما يحمله المقام من تطويل •

موضوع المساواة الاجتماعية هو الفرد البشري ، كما كان الأمر في شأن المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية .. وأنه الفرد البشري ، كما سبقنا الإشارة إلى ذلك مرات ، هو الغاية وراء كل معنى جماعي .. هو غاية وسيله الإسلام ولقرآن ، وهما أعظم ابواب المهيبة على الأعداء .. ووسيله أيضا المجتمع ، وهو أعلى ما اتجته الانسانية الى اليوم • والفرد الذي هو غاية هو الفرد البشري ، من حيث هو بشري .. حتى وان كان أحق .. فإنه يجب أن لا يجعل وسيلة الى شيء سواه .. ومن أجل ذلك يجب ألا تقوم بين الأفراد فوارق من جراء المولد ، أو العنصر ، أو اللون ، أو العقيدة ، أو الجنس من الذكورة والأنوثة • قال تعالى في ذلك : « يا أيها الناس اذ خلقناكم من ذكر و أنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » قوله « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » بمعنى اما تكون الكرامة بالعلم والخلق .. فان التموى علم وعمل يقتضى العلم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « ان الله عليم خبير » .. « عليم » إشارة الى العلم ..

« خير » إشارة الى التصرف بالعلم • وقال المصوم « الناس

لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »
وعدم التميز الاجتماعي ضد الضعيف ، ومحو الفوارق
التي قامت على قانون العابة بين الأفراد والطبقات هو عمل التمدين
الأكيد ، قادا وحدث مجتمعا للضعفاء فيه حق محفوظ ، وكرامة
مرعية ، وإذا وحدث مجتمعا للنساء فيه حرية ، وحرمة ،
وتشريف ، وللاطفال فيه حقوق ، وله بهم عناية ، وعليهم رحمة ،
ولهم فيه محبة ، فاعلم أله مجتمعا متعلنا ، ومتحضر .

والأسرة هي المجتمع الأول ، وفيها تعلم ، ولا يزال يتعلم ،
امرد الظالم . والسلوك الاجتماعي الطيب ، واحترام القوانين ،
وتوقير السلطة ، والتعاطف ، والتسامح ، والمحبة .. ولا تزال
للأسرة مقدرتها القائمة على تربية لأفراد التربة التي تكون بعيدة
الأثر ، على حياتهم الفردية ، وحياتهم في مجتمعهم
لصغير ، وفي مجتمعهم الكبر ، حين يبرزون اليهما ، وعماد
الأسرة الأم ، وهي ملكة المالكة الصميرة ، ولكن مع شديد الأسف
فإن الاعتراف بما لم تنفق للأسرة الثرية الى اليوم . فأنها كانت ،
ولا تزال ، مضطهدة . وكان ، ولا يزال ، دورها في بيتها دور
العادمة .. ولهذا الوضع سود المواقف على نشئة الأطفال ،
ما يترك عبق الأثر في حياة المجتمع برمته وفي جميع
مستوياته .

ولقد أسلفنا القول في هذا الكتاب عن أمر المساواة المطلقة

بين الرجال والنساء مما لا تحتاج الى اعادته في هذا الموضع ، ولكن لا بد من الاشارة الى أن أمر المساواة الاجتماعية لا يحى عموا ، وكما هو طبعى للتطور . بل لابد فيه من التخطيط ، والتطوير الدكى للمجتمع ، ذلك بأنه يحتاج الى تعليم ، وبحاج الى تربية . . والتعليم غير الترية فأد عرس التعليم اكاب الفرد الخبرة المهنية التى تجعله مفيدا للمجتمع في الميدان الذى خلق وهو مستعد له بما ركر في فطرته من موهبة . . وهو ضرورى ليلع الأفراد بالقدرات العلمية ، والفيسية ، والادارية ، والتكنولوجية ، لئله حصاره محتهم ، ولئلى بهاق مراقى الكفاءة والكفاية . . وفى التعليم يقع انحصار ، ويقع التميز ، ويسود الاتجاه الى التخطيط لانحاط حاجة المجتمع . فيه يقع التمييز بين الرجال ، والنساء . ويقع التمييز بين الرجال ، والرجال أيضا ، ذلك بأنه اسيرمى الى تسمية ، وتعدية الموهبة عند كل موهوب ، حتى يخدم محتهم فى الميدان الذى خلق وهو مستعد له استعدادا فطريا ، مد ان هذا التميز الذى يقع فى ميدان الاعداد لخدمة المجتمع المدنية لا يحل معه أى امتياز اجتماعى ترتفع به ، بلقائبا ، مكانة فرد فوق فرد آخر . . وفى هذه النظرة ، التى تنجبه الى اعداد المواطنين اعدادا مهنية بواسطة برامج التعليم الموجه ، قيمة المرأة غير قيمة الرجل .

ولكنها قيمة مساوية لقيمته .. بمعنى ان المرأة ، حين تمدد لتكون
أما ، بأن تعلم كل ما يؤهلها بهذه الوظيفة الحيوية المشعبه ، لا
تقل خدمتها للمجتمع ، في نظر المجتمع ، عن خدمة أخيها الذي
يعد ليكون مهندسا ، أو طبيبا ، أو مشرعا .. وليس لأعداد
الأمومة الصالحة حد ينف عنه ، فان انصاف كلما علمت كذا راد
كفا ، بما في ميدان لأمومة نفسها .. ومن أجل مصلحة المجتمع يجب
أن يعلم كل فرد عملا يتقنه باليد وبالقل ، وهو كذلك من مصلحة
الفرد نفسه ، لأن الانسان لا تسع فيه العكسية ، ولا قيمة
الحلقة ، الا اذا كان يحب العمل اليدوي ، ويتقن طرقا منه
اتقاناً حسا ، ذلك بأن الترقى جميعه أسا هو علم ، وعمل
بمقتضى العلم .. قال تعالى في ذلك « اليه يصعد الكلم الطيب ،
ويعمل الصالح يرفعه » كل هذه المسائل تتحل في عرض
التعليم ..

وأما عرض التربية فهو تحرير المواهب الطبيعية العقل ،
والقلب ، من أسر الأوهام ، والأباطيل .. بسلامة القلب من
الخوف ، وحصاء الفكر من الأوهام ، بتحقيق حياة الفكر ،
وحياة الشعور ، وهي غاية كل حي .. وهي مهمة التربية ..
ولتربية وطائف كثيرة هي في جملها هل الانسان من
الاستيعاش الى الاستيناس ، حيث تصح عاداته جميعها
السانية ، ومهدة .. فهو يأكل بطريقة انسانية ، ويشرب بطريقة

اسايه ، وينام ، ويجلس ، ويتحدث ، ويصرف في جميع
 شئونه ، العامة والحاسة ، بطريقة اساية ومهدبة ، فلا يعرض
 مبدله ، ولا يدير منه ما يؤدي السمع ، ولا البصر ، ولا
 العقل ، ولا القلب .. وهو لا يصدق في الأماكن العامة الطيبة ،
 ولا يتبول ، ولا يتموط ، في الأماكن العامة . ولا يرمى
 الأوساخ ، والقاذورات ، في الأماكن الطيبة على الطرقات .
 وهو ، على العموم ، يحاول ، يصعد الطاقة ، أن يترك كل شيء
 على صورة أحسن من التي وجد عليها .. ويجب أن يمدد لكل
 أولئك التربية .. التربية في المدارس ، وفي النوادي ، وفي
 الأماكن العامة ، حيث يجري التنقيب ، والتعليم ، للشعب ،
 كل حين ، وبغير انقطاع ، وبكل وسائل الاعلام التي تستطيع
 الدولة أن توفرها ، من اذاعة ، وتلفزيون ، وسينما ، ومسرح ،
 وصحافة ، وكتب ، ومجلات ، ومحاضرات ، وأنواع التسجيل
 المختلفة ، لأنواع القصور المخلفة ، حيث توجه الدولة
 كل امکانات المجتمع لأصحاب الأفراد الباصحين ، وذلك بتوخي
 النهج التربوي السليم .. فإن مشاكل المجتمعات كونه أغلبية
 الأفراد أما مراهمين ، أو أمثالا .. ويقل فيها الأفراد الناصحون
 الذين يقومون على مواجهة الحقيقة ، والأطفال يتابعون مبدأ
 اللهو ، وهو مبدأ يجعل الإنسان يتصرف مدفوعاً بأهوائه ورغباته ،
 ويحاول أن يحقق أية رغبة عند ظهورها ، دون أن يوازن بين

رغبة وأخرى وينفذها ، ويقترن الجري وراء هذا اللهو الرقعي المباشر بحجب ما قد يسبب الفشل ، أو الألم ، أو التفكير ، ومثلك كهذا ينشأ من الفشل في التمييز بين الرغبات المتنازعة على أساس مقبول طويل المدى . وعالما ما يحل التمني محل ما هو محتمل أو مرغوب فيه (وليس هالك محرج إلا عن طريق التربية . . والتربية ، بخلاف التعليم ، لا يقع فيها التحميص ، ولا تمييز بين الرجال والنساء ، وإنما هي حق أساسي لكل فرد بشري ، وهي تشمل حتى الأطفال ، ولا تحد إلا نطاقاتهم على النقيض ، والادراك والتعبير . ولقد تحدثنا عن أسلوب الإسلام في التربية فيما سلف من هذا الكتاب مما لا موجب لأعادته هنا .

والقاعدة الذهبية في التربية هي أن تصح الأفراد أمام المسؤولية وأن تعيمهم ، بكل الوسائل ، على تحمل المسؤولية ، ذلك بأن غرض التربية هو انجاب الأفراد الناضجين . . هو انجاب الرجال ، من الأطفال ، ومن المراهقين ، الذين تجمع بهم المجتمعات عجيحا . . والفارق بين الأطفال والمراهقين ، وبين الرجال هو أن الرجال يتصرفون بحرية ، ويحملون مسؤولية تصرفهم ، بينما الأطفال والمراهقون يتركون التصرف خوفا من المسؤولية ، أو يتصرفون ويحاولون الهروب ، تحت الظلام ، من مسؤولية تصرفهم .

خاتمة

أما بعد فإن فصل القول في أمر الرسالة الأولى ، والرسالة الثانية ، هو أن الدين شكلا هرميا قمته عند الله ، حيث لا عند ، وقاعدته عند الناس .. « إن الدين عند الله الإسلام » ، ولقد تربت هذه القاعدة من تلك القبة .. تدرجت الى واقع الناس ، وحاجتهم ، ومطامعهم الشريفة ، والمادية ، فكانت الشريعة .. وستظل قمة هرم الإسلام فوق مستوى التحقيق ، في الأسد ، وفي ما بعد الذئب . وستظل الأمراد يتطورون في فهم الدين ، كلما علموا المزيد من آيات الآفاق ، وآيات الفوس . والله تبارك وتعالى يقول « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ ويقول « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » وهو تبارك وتعالى يشاء لنا الريادة من علمه كل لحظة ، وفي ذلك يقول « كل يوم هو في شأن » وما شأنه الا ابداء ذاته لحقيقه ليعرّفه .. وهو تبارك وتعالى يعلمنا في ذلك فيقول « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه ، وقبل رب زدني علما » وما الزيادة في العلم الا ترق من قاعدة الهرم نحو قمته في تطور مستمر .. ونحن يتطور الانسان فهم الدين ، في فهم الدين ، يتطور شريعته ، تبعالحاجته ولطاقته ، من القاعدة الغليظة الى قاعدة أقل غلظة ..

فالأفراد يتطورون في فهم الدين فمدخلون في مراتب الشرائع

الفردية ، والمحتمات تتطور ، تبعا لتطور الأفراد ، فترتفع شرائعها من قاعدة عليقة الى قاعدة أعلى علته .. وذلك صعدا في سلم هرم قاعدته شريعة الرسالة الأولى ..

فإذا كانت قمة هرم الدين ، فيما يخص المال ، هي آية « يسأرونك ماذا ينفقون فلعمرو » فإن قاعدته هي آية « حد من أموالهم صدقة تظهرهم ، وتركيعهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم » ، وعليها تمت شريعة الرسالة الأولى في أركانها ذات المقادير ، وجعلت شريعة في المال ، وركنا في العبادة ، وذلك لأن الناس لم يكونوا يطبقون أفضل منها ، وترك أمر تحقيق قمة الهرم للأفراد ، كل حسب طاقته ، وورد التبرع في التسمية في قول المصوم حين قال « في المال حق غير الزكاة » وورد في قوله تعالى حين قال « قل أن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » وذلك لأن شريعته هو في المال ، وركنه في العبادة ، هو أقرب الى القمة ..

وإذا كانت قمة هرم الدين ، فيما يخص السياسة ، هي آية « فذكر إنما أنت مذكر لا تملك عليهم بشيئا » فإن قريبا من قاعدته آية الشورى « فيما رحمة من الله لست لهم ، ولو كنت فظا ، غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عرفت فأوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين » وقاعدته على الإطلاق هي آية السيف « فإذا

أسلح الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ،
وحدوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا ،
وأقاموا الصلوة ، وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، إن الله عموماً
رحيم .»

وعلى هذه القاعدة قامت شرعة الجهاد ، وعلى آية انشورى
قامت شرمة الحكم ، على أساس وصاية الفرد الرشيد على
المجموعة .»

فقاعدة الهرم في هذه ليست ديمقراطية . وإنما هي أقرب
ما تكون الى الديمقراطية ، في وقت لم تكن الديمقراطية قد
عرفت ، ولم يكن المجتمع مستعداً لممارستها .»

وقاعدة الهرم في تلك ليست اشتراكية ، وإنما هي أقرب ما
تكون الى الاشتراكية . في وقت لم تكن الاشتراكية ، بمصوبها
العلمي ، قد عرفت ، ولم يكن المجتمع مستعداً لممارستها .»

فإذا كانت البشرية ، في مدى أربعة عشر قرناً قد قطعت
أرضاً شاسعة نحو الصبح ، وأصبحت تسجل عهد الرجولة ،
وتستدبر عهد الطفولة .» وأصبحت ، بفضل الله ، ثم بفضل
هذا الصبح ، نطق ، ماديًا وهكريًا ، الاشتراكية
والديمقراطية ، فقد وجب لانتشار بالاسلام على متواهما ،
وهذا يعني الارتفاع من قاعدة شرمة الرسالة الأولى العليظة

الى قاعدة أهل علة ، رضع هونا ما نحو القمه ،
وستظل القمه دائما في مظقة الفرديات .. وأدنى مسارل
القاعدة الجديدة هي لمدخل على الاشتراكية ، وذلك بتحريم
تمليك وسائل الانتاج ، ومصادر الانتاج ، على الفرد
الواحد ، أو الأفراد القليلين في صورة شراكة .. فإن هذا
يفتح أبواب التشريع على الاشتراكية .

وأدنى مسارل القاعده الحديده هي المدخل على
الديمقراطية وذلك بوجوب حق الانتخاب لكل مواطن ، ولكل
مواطنة ، بلع ولعب سا ، معية مثلا ، وكذلك حق الترشيح ..
فإن هذا يفتح أبواب التشريع على الديمقراطية .
وهذا الصنيع هو ما يسمى تطوير التشريع .. فهو ارتفاع ،
من نص فرعي ، يتلهم أكثر ما يمكن من التسامي نحو نص
أصلي .. هو ارتفاع من نص الى نص .

وهاك تشريع مداحل بين الرسالة الأولى والرسالة الثانية
كتشريع المعاداة ، وهذا لا يدخل فيه ، من التطوير ، الا
ما يجعل قمته مفتوحة على مازل الشرائع الفردية ، لكل فرد
تسامي ، بفضل الله ، ثم بفضل ائذان التقليد ، الى تحقيق فرديته
التي يمتاز بها عن أفراد القطيع .

فالشرية الجماعية ليست أصلا ، وإنما الأصل الشريعة
الفردية ، ذلك ، وبأنفس القصد الذي به الجماعة ليست أصلا ،

وانما الأصل الفرد .. ولكن الناس لكثرة ما ألفوا المعيشة في الجماعه ، ولشدة أثر غريزة القطيع عليهم ، ظلوا الأمر بعكس ذلك . فانت تراهم يسعريون ، ويستوحشون عندما تكلمهم عن الشرائع الفردية . ولأمر آخر أيضا ، فان الشريعة الفردية مرتبة رجولة ، ومرتبة مسئولة . والناس لا يزالون أطفالا ، يحسون أن يحمل غيرهم عنهم مسئوليتهم ، ويطلب لهم أن يظلو غير مسئولين .. أو هم ان احتملوا المسئولية فاسا يظلموها في المطيع ، وعلى الطريق المطروق . أما أن يكون المسئول وترا ، وان يطرق طريقا نكرا ، فانه أمر محيف ، ولا يجد في النفوس استمدادا ، ولا ميلا .

والمدخل على الرسالة الناية الرسالة الأولى . الا ما يقع عليه التطوير من تشريعها .. ولا يقع التطوير في أمر المبادات الا على الركاة ذات المقادير ، وما ذاك الا لأنها ليست ركنا تمهيدا الا لمة ان الناس لم يكونوا يطبقون أفصل منها ، والا فأن الركن التمبدي انما هو ركاة المصوم . ولا يقع التطوير على تشريع المواضة ، وما ذاك الا لأنه أصيل ، وقد بنى على الأصول الثابت من الدين . وانما يقع التطوير في تشريع المصاملات ، كالحقوق الأساسية للأفراد ، وكانظم الاقتصادية والسياسة ، الى آخر ما يرتبط تحولات المجتمع ، وما يسرع اليه التغيير من هذه النظم التي يجب أن تواكب المجتمع في حيوية ،

واقنذار على التجدد ، والنمو ، والنطور ، وقد صبقت الى كل
اولئك الاشارة في هذا الكتاب .

فالأصل في الرسالة اشيايه الحيويه وانطور ، والتجدد ،
وعلى اسانك في مراقبتها أن يجدد حياة فكره ، وحياء شعوره
كل يوم ، بل كل لحظة ، من كل يوم ، وكل ليله . . مثله الأعلى
في ذلك قول الله تبارك وتعالى في شأن نفسه « كل يوم هو في
شأن » ثم هو « لا يشغله شأن عن شأن » .

هو من ينهل من مدخل شهادة « لا اله الا الله » وأن محمدا
رسول الله « يجاهد ليرقى باقان تقليد المصنوم الى مرتبة « فاعلم
انه لا اله الا الله » ثم يحاهد باقان هذا التقليد حتى يرقى
بشهادة التوحيد الى مرتبة يعلى فيها عن الشهادة ، ولا
يرى الا أن الشاهد هو المشهود ، ويظالم بقوله تعالى « شهد الله
أنه لا اله الا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائما بالقسط ، لا
اله الا هو ، العزيز الحكيم » وعندئذ يعمد على الاعتساب ،
ويحاطب كفاحا ، يعبر حجاب « قل الله اثم درهم في خوصهم
يلعبون » ، و « قل » ها تعنى « كن » وههنا مقام الشرائع
الفردية . . وحين يرقى السالك في مدارج الرسالة الثانية من
مدخل الرسالة الأولى على النحو الذي بيأ يكون قد قطع درجات
السلم السباعي ، من درجة الاسلام ، الى الايمان ، الى

الإحسان ، الى علم اليقين ، الى عين اليقين ، الى حق اليقين ، الى الاسلام من جديد ، ثم يبدأ من جديد ، على مستوى جديد ، حورته الجديدة، وهكذا دواليك.

ان الاسلام سلم لولبي ، أوله عندنا في الشريعة الجماعية ، وآخره عند الله ، حيث لا عند ، وحيث لا حيث . . والراقي في هذا السلم لا ينفك في صعود الى الله « ذى المارج » فهو في كل لحظة يريد علمه ، ويريد ، تبعاً لذلك ، اسلامه لله . وتتجدد بكل أولئك حياة فكره ، وحياة شعوره . . ودخول المارج ، في هذه المراقي ، على مرتبة الشريعة الفردية ، أمر محتم ، وليس هو بالمقام البعيد المنال ، وإنما محط الكمال ، الذي تقطع دونه الأعناق ، هو أن تكون حقيقتك عند الله وأن تكون شريعتك الفردية طرفاً من حقيقتك هذه . وهيئات الـ هيئات . فلن ذلك سير في الاطلاق . . وليس في هذا القول مثالية ، لأنه ، في طرفه العلوي ، قد تنزل الى أرض الناس ، وأخذ بشدهم الى المطلق ، على تفاوت في التحصيل بينهم ، كل حسب مبلغه من العلم . فهم في سلم صاعد ، عدد درجاته بعد الأتس ، و « فبق كل ذى علم عليم » الى أن يتسهي العلم الى « علام القيوب » .

لن هذا يعني أن حظ الانسان من الكمال لا يحدد
حد ، على الاطلاق • موعود الانسان من الكمال مرتبة الاله •
ومع ذلك فان النهج الى تحقيقه لا يقوم على المثالية ، وانما يقوم
على الواقعية الملموسة في مسلك العبادة ، وفي مسلك المعاملة ،
وقد سلفت الى كل أولئك التفاصيل • • وبسبب الانسان
أن الله قد ادخر له من كمال حياة الفكر ، وحياة الشعور ، ما لا عين
رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر •
لك الحمد اللهم كما أنت أهله ، حمدا كثيرا ، طيبا مباركا فيه •

تصويب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطأ	التصواب
٥٢	٦	يجز به	يجز به
١٤٦	٢	وشرعنا لقتال	وشرعنا القتال
١٢٢	١١	سقطت آية «هم»	نرجوا تصويبها

بين «ص» و «هم» مسق «

من أجل البعث الاسلامي

من أجل استيعاب فكرة البعث الاسلامي هذه نوصي ،
بالاضافة الى قراءة هذا الكتاب ، بقراءة الكتب الآتية : —

١ — رسالة الصلاة

٢ — الاسلام

٣ — لا اله الا الله

٤ — طريق محمد

قراءة طريق محمد تمامها بالعمل به ..

« من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »

هذا الكتاب

« أن الإسلام رسالتان : رسالة أولى قامت على فروع القرآن ، ورسالة ثانية تقوم على أصوله .. ولقد وقع التفصيل على الرسالة الأولى .. ولا تزال الرسالة الثانية تنتظر التفصيل .. وسيتقل لها ذلك حين يجيء رجلها ، وحين تجيء أمها وذلك مجيء ليس منه بد .. » كان على ربك حتما مقضيا » ..

هذا الكتاب

« من الخطأ التشيع أن يظن أنسان أن الشريعة الإسلامية في القرن السابع تصلح بكل تفاصيلها ، للتطبيق في القرن العشرين ، ذلك بأن اختلاف مستوى مجتمع القرن السابع ، من مستوى مجتمع القرن العشرين ، أمر لا يقبل المقارنة ، ولا يحتاج المعارف لفصل فيه تفصيلا ، وأما هو يتحدث عن نفسه فيصبح الأمر عندنا أيام إحدى طوائف : أما أن يكون الإسلام ، كما جاء به المعصوم بين نفعي المصطف ، قادرا على استيعاب طوائف مجتمع القرن العشرين فيتولى توجيهه في مضمار التشريع وإل مضمار الأخلاق ، وأما أن تكون قدرته قد نعدت وتوقفت عند حد تنظيم مجتمع القرن السابع ، والمجتمعات التي تليه مما هي مثله ، فيكون على بشرية القرن العشرين أن تخرج عنه ، وأن تلتبس حل مشكلاتها في فلسفات أخرى ، وهذا ما لا يقول به مسلم .. ومع ذلك فإن المسلمين غير واعين بضرورة تطوير الشريعة » ..

هذا الكتاب

المسلمون يقولون أن الشريعة الإسلامية كاملة .. وهذا صحيح .. ولكن كمالها إنما هو في مقدرتها على التطور ، وعلى استيعاب طوائف الحياة ، الفردية ، والاجتماعية ، وعلى توجيه تلك الحياة في مدارج الرقي المستمر ، بالغة ما بلغت تلك الحياة الاجتماعية ، والفردية من النشاط ، والحيوية ، والنفوذ ..

جمادى الآخر ١٣٩١ - يوليو ١٩٧١

السودان - أهدمان - ص.ب - ١١٥١

الثمن ١٠ جنيهات